

تأليف

مأمون غريب

١٩٩٩

مركز الكتاب للنشر

الطبعة الأولى
١٩٩٩



مصر الجديدة : ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة
تليفون : ٢٩٠٨٢٠٣ - ٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس : ٢٩٠٦٢٥٠

مدينة نصر : ٧١ شارع ابن النفيس - المنطقة السادسة - ت : ٢٧٢٣٣٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـة

هزتنى شخصية عمر بن عبد العزيز ومواقفه وأنا أقرأ سيرة حياته عبر عشرات المراجع.

هذا الإنسان الذى عاش حياة مترفة، فهو من أسرة الخلافة الأموية، الذين عاشوا فى القصور، وبين أبهة الحكم، وكان لأسرته من السلطة والجاه، ما يجعل غيره يتوه عجبا وخيلاءً، ولكن عمر بن عبد العزيز كان شخصية بالغة الثراء، فقد تربى على العلم وعلى القيم، ويظهر معدنه هذا عندما تولى الخلافة، فقد تحول إلى إنسان آخر.

إنسان يرد المظالم إلى أصحابها.

وذو قلب كبير يعطف على الضعفاء، ويواسى الفقراء، ويزور المرضى، ويلغى المسافة بينه وبين الآخرين.. فهو لا يعيش فى قصر ولكنه يعيش فى بيت بسيط غاية البساطة مبنى من الطوب اللبن.

جعل كل همه أن يعيش الناس فى أمن وأمان.. فلا سوط يرهبهم.. ولا سيف يؤرق حياتهم.. ولا ظلم غاشم يطير النوم من عيونهم.. ولكنه وهو الخليفة أخذ يشعر الناس بأنه واحد منهم، وأن على الجميع أن يتمتعوا بقيم وفضائل الإسلام

الحنيف. . فالإسلام لا يفرق بين إنسان أو آخر باسم اللون أو الدم ولكن الجميع متساوين لا فرق بين إنسان وآخر إلا بالتقوى.

التف حوله طلاب الدنيا وأبعد عن نفسه الشعراء وأهل النفاق. . لم يبعد الشعراء لأنه لم يكن صاحب حاسة مرهفة، أو أنه لا يتذوق الشعر وما فيه من صور جميلة، ولكن كان يخشى أن يقول فيه الشعراء المديح، وهو لا يحب المديح. . رغم أنه كان يعشق الكلمة الآسرة، ويحب الفن الرفيع، ويطرب للموسيقى قبل أن يلى الخلافة، وعندما تولى الخلافة كان حريصا على مصالح الناس لا مصلحته الشخصية. . وكان متفرغا لأمور الناس لا أمور نفسه، وكان يتوق إلى رضاء الله ولا ينتظر ثناء من أحد.

إن سيرة عمر بن عبد العزيز تعيد إلى الناس ذكرى جده العظيم عمر بن الخطاب الذى ملأ الدنيا عدلا. . وترك بصمات لا تمحى فى تاريخ الإسلام.

لقد اغتنى الناس فى عهده، حتى أنه أمر وقد امتلأت خزائن الدولة بالمال أن يفك رقاب العبيد.

إن سيرة حياة هذا الخليفة الزاهد، ومدة حكمه التى لم تتجاوز سوى عامين وخمسة أشهر وبضعة أيام كانت من أخصب فترات التاريخ الإسلامى. . وأكثره تألقا وجمالا. . فقد أعاد الناس إلى أيام الخلافة الراشدة، حتى كاد الناس ينسون ما فعله بنو أمية من مظالم، وما اقترفوه من أثام عندما لعنوا الإمام على بن أبى طالب على المنابر، وعلى بن أبى طالب هو ابن عم رسول الله ﷺ وزوج

فاطمة الزهراء أحب الناس إلى قلب رسول الله.. فأبطل عمر هذه العادة الفجة.. ونهى عن سب الإمام وأشاد بمآثره.

كما أن الناس لم ينسوا ما فعله بنو أمية عندما قتلوا الإمام الحسين، ومثلوا بجسده الطاهر، واجتثوا رأسه الشريف وطافوا بها الشوارع والطرقات فى الكوفة وهو سيد شباب أهل الجنة.

ولم ينس الناس لبنى أمية فعلة واليهم الحجاج بن يوسف الثقفى عندما ضرب الكعبة بالمنجنيق وهو يقضى على ثورة عبدالله بن الزبير، فلم يكتف بقتله، بل اجتث رأسه وأرسلها لعبد الملك بن مروان فى دمشق، وصلب جسده، دون أن يراعى مشاعر أمه «أسماء بنت أبى بكر» وهى التى أسماها الرسول العظيم ذات النطاقين!

كان عمر بن عبد العزيز الواحة التى استظل فى ظلها الناس.. والأمل المرتجى لكل الباحثين عن الأمن والأمان والعدل وتطبيق قيم ومبادئ الإسلام.. إنه صورة للعدل.. والقيم الرفيعة.. والفضائل الجليلة، التى تجسدت فى شخصيته الآسرة.. فعاش حديقة تنشر شذاها فى عصره.. وأصبح قدوة عزيزة المثال لمن يأتون بعده.. إنه عمر بن عبد العزيز.. حفيد عمر بن الخطاب الذى ملأ الحياة بكل ما هو جدير بالحياة.

مأمون غريب

الطفولة والشباب

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبى العاص ابن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف. . ويكنى بأبى حفص.

وأمه «أم عاصم» بنت عاصم بن عمر بن الخطاب.

ولد فى المدينة المنورة سنة ٦٢ هـ كما يقول معظم من أرخ له، وكان والده عبد العزيز بن مروان قد تولى ولاية مصر بعد ولادته بثلاث سنوات، وقد آثر الوالد أن يبقى ابنه فى المدينة، حتى يشب فيها، ويتعلم على يد علمائها من التابعين، وفى كنف أخواله من أسرة عمر بن الخطاب.

وقال بعض الرواة أن أمه رحلت به إلى مصر حيث كان زوجها حاكما عليها، واصطحبت معها عمر، وكان والده يعيش فى حلوان. . حيث الهدوء والسكينة والهواء النقى فى تلك الضاحية الجميلة. . وأن عمر قد أحب هذا المكان الذى كان مرتع طفولته. . وأنه ذات يوم دخل حظيرة الخيل فركضه أحد الخيول فأشجى[1] وجهه، وعندما جاء والده ورأى الدم يملأ وجهه ابتسم

(١) يقال رجل (أشَجّ) إذا كان فى جبينه أثر الشجة.

ابتسامة الرضى.. وتيقن أن ابنه هذا سيكون له مستقبلا عظيماً.. فقد تداعى له على الفور الرؤيا التى رآها جده العظيم عمر بن الخطاب.. فقد رأى عمر فى منامه أن من نسله أشج يملأ الأرض عدلا.. وأنه من بنى أميه، حتى أنه قال عندما استيقظ من نومه:

«مَنْ هذا الأشج من بنى أميه، ومن ولد عمر، يسمى عمر، يسير سيرة عمر، ويملأ الأرض عدلا».

وها هو عبد العزيز بن مروان يرى ابنه وقد شج.. وهو من بنى أمية.. ومن نسل ابن الخطاب.. إنها نبوءة أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب.. وأنه سوف يلى.. وأنه سوف يملأ الأرض عدلاً.. استبشر عبد العزيز بما حدث لولده، وقال لأمه التى جاءت متلهفة وهى ترى ابنها وقد ملأت الدماء وجهه.

- ابشرى يا أم عاصم.

وربما تداعت إلى ذهن عبد العزيز بن مروان فى تلك اللحظات، قصة زواج عاصم بن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.. فقد خرج أمير المؤمنين عمر ذات مساء كعادته يطوف بطرقات المدينة.. يتحسس أخبار الناس لعل منهم من يشكو مظلمة، أو يحتاج إلى عون.. رغم أن الجو بالغ القسوة والبرودة، وكان الظلام يلقى على هذه الطرقات بردائه القاتم.. وأمام أحد الدور الفقيرة استرعى انتباه أمير المؤمنين حوارا يدور بين أم وابنتها.

الأم تريد من ابنتها أن تمزج اللبن بالماء.

والبنت ترفض أن تفعل ذلك خشية من الله.

الأم تصر على أن تخلط الابنة اللبن بالماء، والبنت تقول لأمها مستنكرة:

ـ كيف أمذق، وقد نهى أمير المؤمنين عن المذق.

الأم تقول لها:

ـ إن الناس يمذقون، فامذقي، فما يدرى أمير المؤمنين بنا إن مذقنا، ولا يرانا.

البنت تقول لأمها:

ـ يا أماه إن كان أمير المؤمنين لا يرانا فرب أمير المؤمنين يرانا..!

يستمع ابن الخطاب لهذا الحوار فتدمع عيناه، ويعجب من هذه الفتاة وبإيمانها وخوفها من الله.. ويعود إلى منزله ولا يفارق خياله هذا الحوار الذى دار بين الفتاة وأمها. وفى الصباح طلب من ابنه عاصم أن يذهب إلى هذه الدار ويعرف من يسكنها، وعندما عاد ابنه إليه، طلب منه ابن الخطاب أن يتزوج هذه الفتاة، وأنجب منها (ليلى) وكانت كنيتها أم عاصم.

وأم عاصم هذه هى التى تزوجها عبد العزيز بن مروان فأنجبت له عمر بن عبد العزيز.

قد يكون عبد العزيز بن مروان قد تذكر كل ذلك، وامتلأت نفسه سعادة وحبورا وهو يتذكر رؤيا ابن الخطاب.. فنظر إلى زوجته أم عاصم وقال لها ما قاله:

ابشرى يا أم عاصم.

ثم قال لابنه:

ـ إن تكن أشج بنى أمية، إنك إذن لسعيد.

* * *

وتمضى الأيام...

وكان على الوالد أن يرسل ولده إلى المدينة التى تمتلئ بالعلماء الأجلاء من التابعين ليتلقى العلم، وكان الصغير يتوق إلى العلم، وكان شديد السعادة عندما طلب من أبيه أن يذهب إلى المدينة لتلقى العلم ووجد استجابة سريعة من الوالد الذى كان قد أزمع أن يرسله لكى يعدّه أن يكون رجلا عالماً فقيها ملماً بأمور دينه.. وعهد إلى تعليمه بعالم فاضل هو صالح بن كيسان.. حيث عكف عمر على حفظ القرآن الكريم .. وأعجب أستاذه بذكائه.. حتى أن أباه عندما حج، وسأل أستاذه عنه قال له:

ـ ما خبرت أحدا الله أعظم فى صدره من هذا الغلام.

من هذه الطفولة ترى كم تركت بصمات على شخصيته فى مستقبل أيامه.

لقد حفظ القرآن صغيرا . .

وتعلم على يد صالح بن كيسان . .

وقرأ الشعر وحفظ الكثير من هذا الشعر . .

ومرت به فى طفولته أحداث تركت بصمات لا تنسى على حياته . . منها مثلا أنه تأخر عن الصلاة لأنه كان مشغولا بتمشيط شعره، وعندما سأله أستاذه عن سبب تأخره عن الصلاة قال:

ـ كانت مُرَجّلتى تمشط شعرى.

قال له أستاذه:

ـ أوتقدم تصفيف الشعر عن الصلاة!

وأرسل الأستاذ إلى والده رسالة بهذه الحادثة فما كان من الأب إلا أن أمر ابنه بحلق شعره . . هذا الذى كان سببا فى تأخره عن الصلاة.

وعرف عمر من يومها أنه ليس هناك أى عذر يحول بين الإنسان وأدائه فرائض الله، وخاصة الصلاة لوقتها.

ثم أن هناك حادثة أخرى فى حياة عمر بن عبد العزيز علمته الكثير، فقد درج وهو يسمع عن عداء قومه (بنو أمية) للإمام على بن أبى طالب، وكراهيتهم له، لأنهم نازعوه ونازعهم الخلافة، وكان عمر صغيرا لم يتيقن بعد بأبعاد هذا الخصام . . وذكر الإمام بسوء، فما كان من أستاذه (عبيد الله بن عبد الله بن عتبه) أن يلومه على ما صدر منه عن الإمام على، وقال له مؤنبا:

ـ متى علمت أن الله سخط على أهل بدر بعد أن رضى عنهم!

وأهل بدر هم الذين قال فيهم أعظم رسل السماء محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام فى الحديث القدسى:

«اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

واستيقظ وعى عمر.. وأدرك ما قاله أستاذه وقال:

معذرة إلى الله ثم إليك.. ووالله لا أعود لمثلها أبدا، و.. لم يعد لمثلها أبدا.

وتذكر عمر كيف نال والده من على فى إحدى خطبه، غير أنه لاحظ أن والده تلجلج فلما سأله عن سبب ذلك قال له أبوه:

ـ «يا بنى إن الذين حولنا لو يعلمون من على بن أبى طالب ما نعلم، لتفرقوا عنا إلى أولاده».

لقد عرف عمر بن عبد العزيز فضل على بن أبى طالب، واستمع إلى التابعين من أهل المدينة عنه وعن فضائله، واستوعب ما قاله عنه العلماء، وخاصة عبد الله بن عمر. الذى كان يناديه: خالى.

وعندما سأل خاله عبد الله بن عمر عن بدعة سب على بن أبى طالب وأولاده على المنابر؟

قال له ابن عمر:

ـ ما ندمت على شىء إلا أنى لم أحارب الفئة الباغية مع أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه.

وعجب عمر.. كيف يُسب على بن أبى طالب بينما يصلى الناس عليهم فى كل صلواتهم عندما يصلون على محمد وآل محمد!

ولم يكن غريبا أن يبطل هذه البدعة عندما تولى الخلافة فيما بعد.

لقد تعلم عمر بن عبد العزيز فى المدينة، واستوعب علوم عصره من الفقه واللغة والشعر، وعاد إلى مصر ليعيش بجوار والده، وعندما مات أبوه الذى حكم مصر عشرين عاما، أرسل إليه عمه الخليفة عبد الملك بن مروان إلى دمشق ليعيش كواحد من أبنائه.. وكان قريبا إلى قلب عمه وكان يوقن أنه الأشج الذى سوف يتولى الحكم يوما فيرفع من مكانة بنى أمية، بل أنه قال لأولاده ذات يوم عندما سألوه عن حبه الشديد لعمر:

«وما لى لا أحبه، وهو أشج بنى مروان، وسيلى الخلافة يوما فيرفع ذكر بنى مروان».

كان على عمر بن عبد العزيز أن يسافر إلى دمشق مقر الخلافة ليعيش بجانب عمه.

شاب فى مقتبل العمر.. جميل المحيا.. محبا للحياة.. متسلحا بثقافة عصره من فقه وشعر وأدب، محبا للغناء.. محبا للمظهر الجذاب.. يلبس أجمل الثياب ويتعطر بأغلى العطور.. وله مِشية جميلة حتى أطلقوا عليها (المشية العمرية).. ولِمَ لا ودخله الذى ورثه عن أبيه يزيد عن الأربعين ألف دينار!

لقد ذهب إلى دمشق حيث مقر الخلافة.. وحيث الترف.. وحيث الخلافة الأموية فى أوج انتصاراتها وتألقها.. فهى تمتد امتدادا هائلاً لتشمل الشمال الأفريقى كله حتى شواطئ الأطلنطى، وهى تتطلع لتصل بحدودها إلى حدود الصين.. بجانب ما تعج به من العلماء والشعراء والفقهاء.. وعلى رأسها الخليفة عبد الملك بن مروان مثالا للعلم والفقه والإلمام بالشعر، فقد كان بليغا وفقيها حتى قال عنه الشعبى.

«ما ذكرت عبد الملك حديثا إلا زادنى فيه، ولا شعراً إلا زادنى فيه».

ومما يروى عنه قوله:

«شيّبنى ارتقاء المنابر، وخوف اللّحن».

ومن هنا فقد حرص عمر أن يكون نِداً لعمه فيما تفوق فيه من علم وثقافة.

وقد زوجه عمه عبد الملك بابنته فاطمة وقال له:

ـ قد زوجك أمير المؤمنين فاطمة بنت عبد الملك.

فقال عمر:

ـ وصلك الله يا أمير المؤمنين. فقد أجزلت العطية، وكفيت المسألة.

وفاطمة هى التى يقول الشاعر فيها:

بنت الخليفة والخليفة جّدها

أخت الخلائف، والخليفة زوجها

وقد أراد يومًا عبد الملك بن مروان أن يبين لأبنائه فضل عمر وثقافته فسأله:

ـ يا عمر كيف نفقتك؟

قال:

الحسنة بين السيئتين يا أمير المؤمنين.

قال:

ـ فما هما؟

قال:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧)﴾ [الفرقان: ٦٧].

فنظر عبد الملك لأولاده وقال لهم:

ـ من علَّمه هذا؟

كل هذه الأمور جعلت عمر بن العزيز قريبا إلى صدر عمه الخليفة عبد الملك بن مروان. .

وكان الخليفة يلاحظ على ابن أخيه حب الناس، والتسامح. . والعطف عليهم، والرأفة بهم، وكان محبًا للعدل إلى أقصى الحدود. . ومن هنا فقد كان ناقمًا على بعض ولاة بنى أمية ممن اتصفوا بالصلف والعنف والجبروت والقسوة والنفاق من أمثال الحجاج بن يوسف الثقفى. . بل كان شديد الكراهية للحجاج لما سفك من دماء الأبرياء. . !

وكان عمه يرى أن الحجاج قدم خدمات جليلة للحكم الأموى. . فهو الذى قضى على ثورة عبد الله بن الزبير فى الحجاز، وهو الذى تصدى للخوارج، وهو الذى كان يقضى بلا رحمة على كل من تخول له نفسه الخروج عن السلطة الأموية.

كان عبد الملك معجبًا بالحجاج على عكس عمر بن عبد العزيز. . وكان يرى أن السياسة بلا قلب. . فهى لا تعرف إلا لغة المصالح.

وكان عمر يرى أن الحكم لابد أن ينبع من تعاليم الإسلام. . والإسلام يحض على الشورى والعدل والإحسان، وكم ألح عمر على الخليفة أن يعزل الحجاج، ولكن الخليفة لم يستمع له، حتى أنه أوصى أولاده بقوله:

«اكرموا الحجاج فإنه الذى وطأ لكم هذا الأمر، ودوخ لكم البلاد، وأذل لكم الأعداء».

وتمضى الأيام.. ويمرض عبد الملك مرض الموت، فيجمع أبناءه ويوصيهم بابن عمهم عمر بن العزيز خيرًا، كما أوصى عمر ابن عبد العزيز بأولاده وقال له:

- «يا أبا حفص استوصى خيرًا بأخويك، الوليد وسليمان إن زلاَّ فشلْهُما.. وإن مالا فأقمهما، وإن غفلا فذكرهما، وإن ناما فأيقظهما، وقد أوصيتهما بك، وعهدت إليهما ألا يقطعا شيئا دونك».

وطلب منه عمر أن يوصى أولاده بالعمل بكتاب الله وسنة رسوله.

فقال عبد الملك:

- قد فعلت.. ووليى فيكم الله الذى أنزل الكتاب وهو يتولى الصالحين.

ثم أوصى الخليفة عمر بن عبد العزيز بابنته فاطمة قائلا له:

- «قد علمت يا عمر مكانة فاطمة من قلبى، وإنى آثرتك بها على جميع آل مروان لفضلك وورعك، فكن عند ظنى بك، ورجائى فيك، وقد علمت أنك غير مقصر ولا مضيع حقها، ولكن الله قد قضى أن الذكرى تنفع المؤمنين».

ومات عبد الملك بن مروان.

وخلفه ابنه الوليد بن عبد الملك.. الذى قرر أن يولى عمر ابن عبد العزيز أميرًا على مكة والمدينة والطائف.. كان عمر يومها فى الخامسة والعشرين من عمره.. يفيض شبابًا وورعًا وحبًا للعدل والإحسان.

أمير المدينة

يموت الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان.. ويتولى الخلافة الوليد بن عبد الملك...

ويعين الوليد ابن عمه عمر بن عبد العزيز واليا على المدينة، ثم على الحجاز (المدينة ومكة والطائف).. ويتوجه عمر إلى المدينة التى ذهب إليها تسبقه أشواقه.. ففى المدينة قبر رسول الله ﷺ، وعلى ترابها الطاهر سارت قدماه ﷺ، حيث استطاع فيها أن يقيم دولة الإسلام، ويحقق الانتصارات على الشرك وعلى اليهود، ويوحد منها شبه الجزيرة العربية، والتى انطلقت منها شرارة الفتوحات الإسلامية الكبرى.. واستطاع خلفاؤه أن يهزموا امبراطورية الفرس والروم، ويرثوا ممتلكاتهم التى ينعم بظلها حكام بنو أمية.

وعلى ثرى هذه المدينة الطيبة عاش الأنصار.. الذين ناصروا الرسول عليه الصلاة والسلام، ومن معه من المهاجرين.. وعلى هذه الأرض الطيبة يعيش التابعون، وفيهم العلماء والفقهاء.. ومنهم تعلم عمر بن عبد العزيز.

كم كان سعيدا أن يعود إلى هذه الأرض الطيبة، ويترك دابق حيث كان يعيش فى قصر فخم مع زوجته فاطمة.. إنه سعيد بأن يكون حاكمًا على هذه المدينة الطيبة المنورة.. ينشر فيها العدل والرحمة وقيم الإسلام.. ويرعى الضعفاء والفقراء، ويوسع مسجد رسول الله، ويهيئ لحجاج بيت الله الحرام الأمن والراحة والأمان، خاصة وأن الناس قد ضاقت ذرعًا بالوالى السابق (هشام ابن إسماعيل) الذى عاث فى الأرض فسادًا ولم يراع حرمة شيخ أو تقى، وأحاط نفسه ببطانة السوء.

كم كانت مدينة رسول الله سعيدة وهى تستقبل ابنها البار عمر بن عبد العزيز.. وكم كانت سعادة أهلها وهم يستقبلون نبأ اختياره واليًا عليهم.. فهم يعرفون فضله وورعه وتقواه.

ولم يخب ظنهم فيه.. فكان أول قرار له أن اختار عشرة من أبناء المدينة ليكونوا بمثابة مجلس يستشيره فى أمور المدينة.. وكان هؤلاء العشرة خير عون له فى إسداء المشورة.. وهم «عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة، وعروة، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وأبو بكر بن خيشمه، والقاسم محمد بن حزم، وخارجه بن زيد، وسليمان بن يسار، وسالم بن عبد الله، وعبد الله بن عامر».

وقد روى الرواة عن أنس بن مالك قوله:

«ما صليت وراء إمام فيه شبه بصلاة رسول الله ﷺ من هذا الفتى (عمر بن عبد العزيز) حين كان فى المدينة».

كان عمر عندما تولى الإمارة فى الخامسة والعشرين من عمره.. وقد ظل واليا لمدة ست سنوات، وقيل سبع سنوات (من سنة ست وثمانين إلى سنة ثلاث وتسُعين).

لقد رأى فيه الناس شخصية أخرى تختلف عما سبقه من الولاة، إنه يجمع من اختارهم للشورى ويقول لهم:

«إنى إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه وتكونون أعوانا لى على الحق، إنى لا أريد أن أقطع أمرًا إلا برأيكم أو برأى من حضر منكم. فإن رأيتم أحدًا يتعدى أو بلغكم من عامل لى ظلامه، فأحرِّج من بلغه هذا إلا أبلغنى».

وقد أرسل عمر إلى الخليفة أن يقتص من مظالم الحاكم السابق، حتى لا يفلت المجرم من العقاب، ووافق الخليفة أن يقف هشام عند دار الإمارة (دار مروان) ليزدريه الناس، ومر أهل المدينة بهذا الحاكم المتغطرس بالأمس الذليل اليوم لعله يستفيد من دروس الحياة، وأن الحياة لا تدوم لأحد والسلطة لا تدوم لأحد.. والجبروت يصبح كسحابة صيف سرعان ما تزول.

وكان هناك رجلان طالما أذاهما هذا الحاكم المتغطرس، هما على زين العابدين بن الإمام الحسين، الذى طالما سمع هذا السفيه وهو يسب جده الإمام على بن أبى طالب، وزوجته بنت أحب الناس إلى رسول الله فاطمة الزهراء.. ومع ذلك فإن على زين العابدين لم ينظر إلى وجهه، ولم يبد شماتة.. إنها أخلاق بيت النبوة.

والعالم الورع سعيد بن المسيب، وقد أمر هشام بجلده، وأمر غلمانه أن يطوفوا به شبه عار فى طرقات المدينة، ولكن هذا الإنسان التقى النقى أبت نفسه أن يراه مكللا بالخزى والعار، وأشاح بوجهه عنه حتى لا يراه فى موقفه هذا الذليل!

ولقد تيقن هشام بأخلاقيات آل البيت عندما شاهد (على زين العابدين) وهو ينظر إلى الأرض حتى لا يراه أو حتى لا يشعر بأنه شامت فيه، فقال هشام:

«الله أعلم حيث يجعل رسالته».

عاش عمر بن عبد العزيز فى المدينة حاكمًا عليها وعلى باقى مدن الحجاز وما حولها مكة والطائف.. يحاول أن ينشر العدل وقيم الإسلام الرفيعة.. حوله مجلس شوراه الذى اختارهم من أهل العلم والفضل.. وأخذ يجالس العلماء والفقهاء، وكان هو نفسه عالـمًا فقيهًا.. ولكن كان يؤرقه ما يتناهى إلى سمعه من بطش الحجاج وغدره بالناس وسفك دمائهم لأوهن الأسباب، فكان يأخذ الناس حتى بالظن، وكثيرا ما نصح الخليفة الوليد بن عبد الملك أن يُنحِّى هذا الطاغية الجبار، ولكن الوليد لم يكن يستجيب له، لأنه كان يرى فى الحجاج سيفًا مسلطا على أعدائه، وأنه أحد أركان الدولة الأموية.. فهو الذى قضى على من خرج عليها.. حارب عبد الله بن الزبير وانتصر عليه، وأعاد لدولة بنى أمية قوتها وسطوتها.. وحارب الخوارج وانتصر عليهم.

ودهاؤه ومكره وخداعه كان فى صالح الحكم الأموى..
وكان عمر بن عبد العزيز يرى غير ذلك.. يرى فيه إنسانًا متسلطًا.. شديد الفحش.. وكان يردد عنه:

«لو جاءت كل أمة بخطاياها يوم القيامة، وجئنا نحن بالحجاج وحده لرجحناها جميعًا».

ومن بغضه للحجاج، أنه طلب من الخليفة أن يأمر الحجاج عندما أمره الخليفة أن يكون نائبًا عنه فى الحج، ألا يمر على المدينة، لأن المدينة تمقته بما فعله بأهلها من قتل وسلب، غير عابئ بأن بالمدينة قبر رسول الله عليه الصلاة والسلام، وصحابته الأبرار، فإذا بالحجاج يعصف بأولاد الصحابة من التابعين، وما كان من الوليد أن طلب من الحجاج ألا يمر بالمدينة بناء على طلب عمر بن عبد العزيز.

ولم يكن ذلك بالأمر السهل الهين على الطاغية.. لقد أصرها فى نفسه، وهو يتوق إلى اليوم الذى ينتقم فيه من عمر.. بالوشاية له عند ابن عمه الوليد.. وإيحائه للخليفة أن عمر يأوى إليه الهاربون من العراق، وهؤلاء الهاربون هم الخارجون عن السلطة، والذين يحاولون تأليب الناس على الخلافة..

كانت مكائد الحجاج تفشل كثيرًا، لأن الخليفة لم ينس نصيحة والده له بأخذ رأى ابن عمه عمر، ولأن الخليفة زوج أخت عمر..

وكانت أم البنين زوجة الخليفة تكره هى الأخرى الحجاج بن يوسف الثقفى لتعنته وبطشه، ولم تر فيه إلا إنسانًا انعدمت الأخلاقيات عنده، فهو لا يعرف الرحمة ولا الشفقة بالناس، ولا يعرف إلا نفسه، وكيف يظل قابضًا على السلطة فى ظل الدولة الأموية.

وكانت تعرف أنه يمكر بالإطاحة بأخيها عمر. وتروى الكتب التى أرخت للدولة الأموية، وما كان يجرى فيها من أحداث، كيف أن الحجاج جاء من العراق إلى دمشق ليهنئ الخليفة بالعودة من الحج، وأنه ذهب معه إلى قصره فى دمشق، وكان فى لباسه الحربى متسلحًا بالسيف والدرع والقوس، وخافت زوجته أم البنين على زوجها، وأرسلت إلى الوليد تقول له مع جارية من جواريها:

ـ ما مجالستك لهذا الإعرابى المتسلح فى السلاح وأنت فى غلالة.

وأرسل لها الوليد أنه الحجاج.. فأرسلت إليه تقول:

ـ والله ما أحب أن يخلو بك وقد قتل الخلق.

ولكن الحجاج رد ردًا فيه صلف وكبرياء وحمق.

فقد قال للخليفة:

«يا أمير المؤمنين، دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول، فإنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة، فلا تطلعهن على سرك، ولا مكايدة

عدوك، ولا تطعهن فى غير أنفسهن، ولا تشغلهن بأكثر من زينتهن، وإياك ومشاورتهن فإن رأيهن إلى افن وعزمهن إلى وهن، واكفف عليهن أبصارهن بحُجُبك، ولا تُملّك الواحدة منهن من الأمور ما يجاوز نفسها، ولا تطمعها أن تشفع عندك لغيرها، ولا تطل الجلوس معهن، فإن ذلك أوفر لعقلك، وأبين لفضلك».

وعلمت أم البنين بما قاله الحجاج فطلبت من الخليفة أن تقابله ورضخ الحجاج للأمر.. وعندما تقدم لمقابلتها أبطأت مقابلته، وعندما دخل لم تأمره بالجلوس، وأخذت تعيب عليه مواقفه وبطشه، وعيرته بما فعله بضرب بيت الله الحرام بالمنجنيق، وهو يخمد ثورة عبد الله بن الزبير، وأخبرته أن هذا الرجل الذى انتهك حرمته ابن حوارى رسول الله ﷺ الزبير بن العوام، وابن أسماء بنت الصديق، ثم عيرته بهروبه من غزاله، وغزاله هذه هى زوجة أحد الخوارج التى آلت على نفسها قتل الحجاج، وكادت تفتك به بالفعل وهرب الحجاج إلى قصر الإمارة بالكوفة، ولولا أن الخليفة أمده بجيش كبير من الشام، وتمكن هذا الجيش من قتل غزاله وزوجها شبيب.

وشعر الحجاج بكراهية أم البنين له، وتأليبها للخليفة، بل أنها أمرته بالانصراف بطريقة ذليلة عندما أمرت جواريها بطرده، حتى أنه شكاها للخليفة قائلا وهو يضطرب:

«والله يا أمير المؤمنين ما سكتت أم البنين حتى كان بطن الأرض أحب إلىَّ من ظاهرها».

وسمع الخليفة ذلك ولم يتماسك من كثرة الضحك وأخذ يقول للحجاج: إنها بنت عبد العزيز.

كان الحجاج بن يوسف الثقفى يتآمر على عمر بن عبد العزيز، وعمر مشغول عنه بلقاء العلماء، وحكم الناس بالعدل بما يذكرهم بالخلافة الراشدة، وبجده العظيم عمر بن الخطاب.

ولكن عمر بن عبد العزيز أثناء حكمه للحجاز، كان يرى أمورا يصعب عليه تغييرها.. فالحياة قد تغيرت، والناس قد تغيروا بحكم التحولات التاريخية الهامة التى حدثت.

فالفتوحات الإسلامية بلغت أقصى مداها فى آسيا وإفريقيا، حتى وصلت الجيوش الإسلامية إلى الهند وسمرقند، وفى الشمال الإفريقى حتى الأطلنطى، بل عبرت الجيوش الإسلامية بقيادة طارق بن زياد عامل موسى بن نصير على المغرب، وبقيادة موسى بن نصير نفسه بعد ذلك إلى الأندلس.. ووطأت أقدام الجيوش الإسلامية أوربا..!

كل ذلك يحدث، بينما السلطة الأموية قد عزلت الحجاز عن الدخول إلى ساحة السياسة، وإبعاد أهلها عن هذا المعترك، خوفا من أن تتألب هذه القوى عليها.

فالأمويون لم ينسوا ثورة الحسين بن على، وذهابه إلى كربلاء، واستشهاده بها.. مما خلق جرحا عميقا فى نفوس الناس..!

كيف يُقتل حفيد رسول الله ﷺ بهذه البشاعة، ولم يشفع له عند حكام بنى أميه أنه سليل البيت النبوى، والحبيب إلى قلب رسول الله، وابن فاطمة الزهراء!

وهال الناس أن يمثل بجسده الشريف، ويجتث رأسه، ويطوف بالرأس الشريف على أسنة الرماح فى طرقات الكوفة..!

ولم ينس الناس موقف الحكم الأموى المزرى من آل بيت الرسول، والتنكيل بهم فى كربلاء.!

ولم ينس الناس ما فعله الحجاج بن يوسف الثقفى ببيت الله الحرام الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا، فإذا بالحجاج يحوله إلى أنقاض، ويردع الناس، ويمثل بأجساد أولاد الصحابة من التابعين.!

لم ينس لهم الناس ذلك.

ولم ينس الأمويون أن هذه الثورات التى اندلعت من الحجاز كانت تهدد ملكهم، وأنهم عليهم أن يحافظوا على هذا الملك.. مهما كانت التضحيات!

صحيح أن حكم بنى أمية لم يكن كله سلبيات فله إيجابياته..

وصحيح أنهم سطروا صفحات جيدة فى سبيل انتشار الإسلام ووصلوا بحضارته إلى أماكن لم تكن تخطر على البال وهم ينشرون نور الإسلام فى قارات الدنيا كلها.. فى آسيا.. وإفريقيا.. وأوربا.. ومن خلال حكمهم انتشرت الحضارة الإسلامية، وازدهرت الحياة بهذه الحضارة، التى حفرت فى أعماق التاريخ.. وفى صفحات الخلود صفحات ناصعة لا تموت.

وأنهم أقاموا بنيان هذه الحضارة، ودعموا العلم والثقافة والفنون، وخلقوا نظما مستنيرة للإدارة والسياسة، وصكوا العملة العربية لأول مرة بدلا من عملة الروم والفرس، وأقاموا الدواوين، وعبدوا الطرق، وربطوا الإمبراطورية الإسلامية بشبكة واسعة من الاتصالات عن طريق البريد المسافر بين عاصمة الخلافة فى دمشق، وغيرها من البلدان المفتوحة.

حضارة بازغة لا ينكرها إلا جاحد. أو غبى أو متعصب.. بل أنهم عربوا دواوين الخراج.. وظهر قواد عظام فى عهدهم، وفى عهد الوليد بالذات ظهر محمد بن القاسم الثقفى الذى فتح السند، وقتيبه بن مسلم الباهلى الذى فتح بلاد (ما وراء النهر) وموسى بن نصير وطارق بن زياد فاتحا الأندلس، كما أن مسلمة ابن عبد الملك كان أحد الذين يدافعون عن حدود الوطن الإسلامى ببسالة عجيبة وهو يحارب الدول البيزنطية، عازما على محاصرة القسطنطينية، وأصبحت الخريطة الإسلامية تمتد فى

أيامهم من الصين إلى الأندلس.. وكانت دعامة هذه الحضارة البازغة الكتاب الكريم والسنة المطهرة.

إلا أن هذا لا يعفيهم من المظالم التى انتشرت فى عهدهم. والثروات الطائلة التى كانت تملكها الأسرة الحاكمة.. كما أن كراهيتهم لأن يشارك أهل الحجاز فى السياسة، دفع أهل الحجاز إلى البحث عن المتع والملذات، والإغراق والاستغراق فى اللهو والعبث والمجون.. فظهر الشعراء الغزليون، كما شُغلوا بالغناء والصيد.. بجانب وجود النزعة الدينية بالطبع بجانب آخر، فقد برز فيهم العلماء والفقهاء وأهل التقوى والصلاح.

حتى نرى الإمام مالك بن أنس يقول:

«نشأت وأنا غلام حدث اتبع المغنين وأخذ عنهم، فقالت لى أمى:

ـ يا بنى إن المغنى إذا كان قبيح الوجه لم يلتفت إلى غنائه، فدع الغناء واطلب الفقه، فإنه لا يضر معه قبح الوجه، فتركت المغنين واتبعت الفقهاء، فبلغ الله عز وجل بى ما ترى».

مهما يكن من شىء.. ففى هذه البيئة الحجازية.. حيث أهل التقوى وأهل الفقه، وأيضا هناك أهل الترف والغناء.. كان على عمر بن عبد العزيز.. وهو الشاب المتفتح على الحياة.. الذواقة للفن.. الذى يحب الشعر، ويطرب للغناء الجيد، وفى نفس الوقت صاحب النفس التواقة إلى ما عند الله.. الحريص أن

يعيش الناس حياتهم بعيدا عن الفسوق.. كان عليه أن يوائم بين الحياة الجادة التى تتمثل فى قيم ومبادئ الإسلام وفضائله، وبين أن يعيش الإنسان حياته دون الخروج عن صحيح الدين.

ويروى الرواة حكاية ترينا حس عمر بن عبد العزيز المرهف، وقدرته على التوفيق بين دينه والحس الفنى المرهف.

قالوا إن فتى عراقيا سمع عن جارية حسناء تجيد الغناء، وكانت جارية لأحد القضاة، وذهب الفتى ليشتريها من القاضى، ولما سأله القاضى عن حرصه على شراء الجارية، أجابه الفتى بأنها صاحبة صوت جميل.

ولكن القاضى لم يكن يعرف عنها ذلك، فلما سمعها طلب من الفتى الانصراف، فقد آثر أن تغنى له وتكون له وحده.

وذهب الفتى يحكى قصة هذا القاضى الذى أطربه غناء جاريته إلى عمر بن عبد العزيز، وكيف أنه رأى القاضى حين استبد به الطرب.. قال:

ـ اهدونى إلى بيت الله الحرام فأنا بدنه (والبدنه هى ما تذبح فى الحج).

فقال عمر:

ـ قاتله الله لقد استرقه الطرب.. وأمر بعزله.

وعندما علم القاضى بأمر عزله قال:

لو سمعها عمر لقال: اركبونى فأنا مطية!!

وعلم عمر بذلك، وطلب القاضى منه أن يسمع الجارية التى غنت:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا

أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بلى، نحن كنا أهلها، فأبادنا

صروف الليالى والجدود العواثر

وتأثر عمر بهذا الغناء حتى البكاء.. وقال للقاضى:

- ارجع إلى عملك راشدا..

هذه الحكاية تدل على حس عمر بن عبد العزيز المرهف، وتقديره للفن الجميل، والكلمة الجميلة الآسرة.

و.. مضت السنين الست الذى عاشها عمر بن عبد العزيز أميرا للحجاز، مرورا سريعا.. أعاد فيها للإنسان كرامته ونشر أريج العدل.. وأحبه الناس، إلى أن استطاع الحجاج بن يوسف الثقفى أن يوغر صدر الخليفة عليه بأنه يأوى إليه الخارجين على الحكم الأموى والمناوئين له من أهل العراق، مما حدا بالخليفة أن يصدر أمراً بإعفائه من الحكم.

* * *

إن عمر بن عبد العزيز يتذكر تلك الأيام الجميلة التى عاشها فى مدينة رسول الله ﷺ.

ويتذكر الأيام والليالى الطيبة التى قضاها قارئا كتاب الله فى مسجد الرسول، أو متهجدا هناك حيث كان يحلو له العبادة فى رحاب مسجد النبى الخاتم.

وطالما دعا ربه فى هذا المسجد بهذا الدعاء. وهو يتجه نحو القبلة:

«اللهم رضنى بقضائك، وبارك لى فى قدرك، حتى لا أحب تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت، اللهم ألبسنى العافية حتى تهنئنى المعيشة، واختم لى بالمغفرة حتى لا تضرنى الذنوب. واكفنى كل هول دون الجنة حتى تبلغنيها برحمتك يا أرحم الراحمين.

يارب خقلتنى وأمرتنى

ورغبتنى فى ثواب ما أمرتنى به

ورهّبتنى عقاب ما نهيتنى عنه

وسلطت علىّ عدوا فأسكنته صدرى.. وأسكنته مجرى دمى.. إن أهم بفاحشة شجعنى، وإن أهم بطاعة بطأنى.

لا يغفل إن غفلت

ولا ينسى إن نسيت

ينصّب لى الشهوات.. ويتعرض لى فى الشبهات.

وإلاّ تصرف عنى كيده يستزلنى.

اللهم فاقهر سلطانه علىَّ بسلطانك عليه حتى تخسئه بكثرة ذكرى لك، فأفوز مع المعصومين، ولا حول ولا قوة إلا بك.

يا رب انفعنى بعقلى، واجعل ما أصير إليه أهم إلىَّ مما ينقطع عنى».

ولكن عمر وهو يهم أن يغادر المدينة إلى دمشق، يتذكر حادثة يقشعر منها بدنه..

إنه يتذكر كيف وشى به الحجاج عند الوليد بن عبد الملك متهما إياه بأنه يحمى الذين يريدون الإطاحة بالحكم الأموى.. واتهمه بحماية خبيب بن عبد الله بن الزبير، وأن خبيب يعد العدة للثأر لأبيه عبد الله بن الزبير.. وأمره الخليفة أن يضربه خمسين سوطا.. وامتثل عمر للأمر.. وفى ليلة باردة أمر بضرب الرجل خمسين سوطا وصب الماء البارد عليه كما أمر الخليفة.. ومات الرجل على أثر هذا التعذيب.. وشعر عمر بن عبد العزيز بتأنيب الضمير.. ولماذا استجاب لأمر الخليفة، ولماذا ظلم هذا الرجل الذى لم يكن متآمرا على الحكم، وظل طيف هذا الإنسان المظلوم يراوده صباح مساء.. وكلما تداعت إليه هذه الذكرى المؤلمة تدمع عيناه حتى أنه تذكر ذلك وهو يغادر المدينة عائدا إلى دمشق وهو يردد خشيته أن يكون عزله انتقاما إلهيا.. وقال:

ـ أخاف أن أكون ممن نفته المدنية!

وهو يقصد أنه يخاف أن ينطبق عليه حديث الرسول عليه الصلاة والسلام:

«المدينة كالكير تنفى خبيثها وتنصع طيبها».

لقد ترك عمر الحجاز.. وأمر الوليد أن يحكم المدينة عثمان بن حيان، ويحكم مكة خالد بن عبد الله العشرى، بناءً على نصيحة الحجاج بن يوسف الثقفى!

* * *

العودة إلى الشام

عاد عمر بن عبد العزيز إلى الشام.. وذهب إلى قصره فى دابق.. وتمنى وقد عاش تجربة الحكم أن يعيش بقية عمره بعيداً عن السلطة.. فهو لم ينس مكائد الحجاج الذى استطاع أن يقصيه عن حكم الحجاز.. واستماع الخليفة له.. ولم يشفع له أنه ابن عمه وزوج أخته، وأوصى عبد الملك به خيرا قبل أن يغادر المدينة.

إن السياسة مؤامرات ونفاق وزلفى.. وهو لا يريد شيئا من ذلك.. لا يريد شيئا يبعده عن الله وتقوى الله.. وأن يعيش بقية عمره عاملا بما حصل عليه من علم، عابدا لله.

انه لا ينسى أبدا كيف نفذ أمر الوليد فى خبيب بن عبد الله ابن الزبير، فمات الرجل، وظل ضمير عمر يؤنبه عما حدث لخبيب.. وكان شبح هذا الحدث يطارده ليل نهار.. حتى عندما عاد إلى دمشق ظل يؤرقه ما حدث لخبيب!

صحيح أنه فعل ما أمره به الخليفة.

وصحيح أنه كوالى نفذ ما أمر به الخليفة.. ولكن كان يمكن أن يجد حلا..!

وظل يؤنب نفسه عن هذه الحادثة.. وتطوف به سحابات الأسى كلما تذكر كيف كان سببا فى قتل ابن عبد الله بن الزبير، وحفيد ذات النطاقين.. إنها لعبة السياسة.

وما كاد الرجل يستقر فى قصره، حتى جاءه من يطلب منه أن يقابل الخليفة الوليد بن عبد الملك.. فى يوم قائظ الحر.. ليس فيه نسمة هواء تحرك حتى أوراق الشجر..!

وقابله الخليفة مقابلة جافة، وهو يسأله عن الحكم فيمن يسب الخلفاء.. ولما رأى صمت ابن عبد العزيز قال الخليفة أنه يستحق القتل!

وقال عمر: أقتل أحدا يا أمير المؤمنين؟

قال: لا.. ولكنه سب الخلفاء.

قال عمر: فإنى أرى أن ينكل به بما انتهك من حرمة الخلفاء.

وانصرف الخليفة غاضبا، وترك عمر الذى رجع إلى داره خائفا من بطش الخليفة حتى أنه عبر عن هذه اللحظة بقوله:

«فانصرفت وما تهب ريح من ورائى إلا وأنا أظن أنه رسول يردنى إليه».

وأيقن عمر أن الوليد وقد عزله، واستقدمه إلى دمشق، لم يكن الغرض من مجيئه أن يكون وزيرا له، أو مستشارا له، ولكن ليكون تحت عينيه وتحت المراقبة، فهو لم يسمع له مشورة، ولولا

زوجته أم البنين أخت عمر، وفاطمة زوجة عمر وأخت الخليفة، وضغطهما على الخليفة حتى يخفف وطأته عن عمر، لنال عمر الكثير من الأذى على يد الخليفة الذى كان كله آذاناً واعية لما يردده الحجاج بن يوسف طاغية العراق عن عمر وتعاطفه مع المظلومين.

قبع عمر فى قصره.. يقرأ كتب العلم، ويقترب من العلماء الصالحين من أمثال رجاء بن حبوة.. ويراقب ما يجرى من أحداث.

كان عمر يرى الفتوحات الإسلامية التى تبلغ مداها فى كل الأنحاء.. انتصارات متتالية تتبعها انتصارات فى كل الجبهات.. فى الشمال الأفريقى، والأندلس، بل أن فاتح الأندلس موسى بن نصير تراوده فكره أن يخترق أوربا، وعبر أوربا يصل إلى القسطنطينية ويحاصرها ثم يستولى عليها، ومن القسطنطينية يعبرها حتى يصل بجيوشه إلى مقر الخلافة الأموية فى دمشق!

طموحات أكثر من الخيال.. ولكن الوليد يرفض اقتراح موسى بن نصير.. طالبا إياه أن يكتفى بما وصل إليه من فتوحات.. لأن عليه أن يقوى دعائم الإسلام فى البلاد المفتوحة.. وينشر فيه قيم الإسلام ومبادئه وتعاليمه، حتى يقبل الناس على الإسلام.

وفى نفس الوقت كان المسلمون يشقون طريقهم بسرعة البرق ليخضع لسلطانهم معظم ممالك الهند، وسمرقند، وبلاد ما وراء النهر إلى حدود الصين.

انتصارات مذهلة فى عهد الوليد بن عبد الملك.. والمد الإسلامى يتسع فى كل مكان.. والحضارة الإسلامية تشق طريقها إلى كل الأرجاء.. ومع ذلك فإن هناك الكثير من المظالم.

فى سجون الحجاج بن يوسف ألاف المظلومين.. وعلى يديه سفكت دماء كثيرة بلا ذنب ولا جريرة ولكن بمجرد الظن.

وكان عمر بن عبد العزيز يرى هذه المظالم فى شتى بلاد العالم الإسلامى فيعتريه الأسى.. وكان يقول:

«الوليد بالشام، والحجاج بالعراق، ومحمد بن يوسف باليمن، وعثمان بن حيان فى الحجاز، وقرة بن شريك بمصر، ويزيد بن أبى مسلم بالمغرب.. امتلأت الأرض والله جورا»

كان عمر يرى أن الوليد بن عبد الملك قد تحول إلى طاغية لا يسمع صوت المظلومين..

والحجاج بن يوسف ملأ سجون العراق بآلاف المسجونين من الرجال والنساء.. وكان يضع النساء مع الرجال فى سجن واحد!!

وأخوه محمد بن يوسف شقيق الحجاج فى اليمن يسوم أهلها سوء العذاب.. إنه صورة طبق الأصل من أخيه الحجاج.

وعثمان ابن حيان بالحجاز فظا غليظ القلب لا يراعى أولاد الصحابة والتابعين.

وقرة بن شريك فى مصر طاغية يأخذ الناس بالظن، ولا يتورع عن شرب الخمر، وكذلك يزيد بن أبى مسلم بالمغرب، ليس هو الرجل الذى يعرف حقوق المواطنين، ويأخذهم بالكتاب والسنة.

كان عمر بن عبد العزيز يرى الحالة الداخلية فى هذه الممالك صورة قاتمة.. كان يتمنى أن يسود العدل والرحمة وقيم الإسلام وفضائله كل أنحاء هذا العالم الإسلامى الكبير..!

هناك أمجاد وانتصارات خارجية مذهلة..

وهناك أيضاً مظالم وجور وطغيان مذهل.. تأتى إليه الأنباء بما فعله الحجاج بن يوسف برجل صالح هو سعيد بن جبير من خيرة الناس علما ودينا وخلقا، ولكنه يقع تحت براثن الحجاج بن يوسف الثقفى.. لا لشىء إلا أنه كان يرى فيه ظالما، ونهاه عن ظلم الناس، فما كان من الحجاج إلاّ أن استدعاه، ودار بينهما حوار طويل.. كان الحوار مهذبا من طرف سعيد، ومتغطرسا غبيا من طرف الحجاج.

سأله الحجاج: ما اسمك؟

- سعيد بن جبير.

الحجاج: أنت الشقى بن كسير!

- أبى كان أعلم باسمى منك.

الحجاج: شقيت وشقى أبوك.

- الغيب يعلمه الله.

الحجاج: لا أبدلنك بالدنيا نارا تلظى.

- لو علمت أنك كذلك لاتخذتك إلها.

الحجاج: ما رأيك فى على بن أبى طالب أهو فى الجنة أو فى النار؟

- لو دخلتها وعلمت من فيها لعرفت أهلها ولكنى ما زلت فى دار الفناء.

الحجاج: ما رأيك فى الخلفاء؟

- لست عليهم بوكيل.

الحجاج: أيهم أحب إليك؟

- أرضاهم لخالقى.

الحجاج: فأيهم أرضاهم لله؟

- علم ذلك عند من يعلم سرهم ونجواهم.

الحجاج: لماذا لا تضحك كما نضحك؟

- وكيف يضحك مخلوق خلق من الطين، والطين تأكله النار.

الحجاج: ولكننا نحن نضحك؟

- لأن القلوب لم تستو بعد.

الحجاج: اختر لنفسك قتلة أقتلك بها!!

- اختر أنت يا حجاج.. فوالله لا تقتلنى قتلة إلا قتلك الله مثلها فى الآخرة.

الحجاج: أتحب أن أعفو عنك؟

- إذا كان العفو فمن الله.

وأخذ الحجاج يظهر غطرسته وجبروته على الرجل الصالح، والرجل الصالح يجيبه بكل إيمان الصالحين ولا يخشاه ولا يهابه.. لأنه كان يشعر أنه بمعية الله سبحانه.

وضاق الطاغية به ذرعا وأمر بقتله.

واتجه سعيد بقلبه إلى الله قائلا:

«اللهم اقصم أجله، ولا تسلطه على أحد يقتله من بعدى».

واستجاب الله دعاء سعيد.. فقد أصيب الحجاج بمرض عضال، وكان يعتقد أن دعوة سعيد قد استجاب لها الله، فكان شبح سعيد لا يغادر خياله، حتى يقول لمن حوله:

- مالى ولسعيد بن جبير!

لقد تحقق الدعاء.. ومرض الحجاج مرض الموت.. ثم انتهت حياته ولم يقتل بعدها أحدا كما دعا الرجل الصالح.. وجاء نبأ موت الحجاج كالصاعقة على الخليفة الوليد بن عبد الملك.. كان يرى فيه ذرعا قويا لحكمه، وأخذ الناس يعزونه..

حتى أنه غضب عندما لم يعزيه عمر بن عبد العزيز، إلا أن عمر حتى يتجنب غضب الخليفة قال له:

ـ إنما الحجاج منا أهل البيت، فنحن نعزى به ولا نعزى!

واقتنع الخليفة بهذ الرد!

وشعر الناس بالراحة بموت الحجاج.. وكان عمر بن عبد العزيز يشعر بأن الله قد أزاح عن كاهل المسلمين هماً ثقيلاً.. وسجد لله شكرا.

ولم تمض إلا أيام قليلة حتى مات الوليد بن عبد الملك بعد أن حكم البلاد عشر سنوات «٨٦ ـ ٩٦هـ» عن عمر يناهز ستة وأربعين عاما.

وكان عهد الوليد ـ رغم المظالم التى سادته ـ بسبب الولاة القساة الغلاظ الذين هيمنوا على أمور البلاد فى عهده، ومنهم الحجاج الذى كان سوط عذاب على الناس عشرين عاما ـ رغم كل ذلك فكان عهده عهد انتصارات عسكرية.. وعصر بناء وتعمير.. وهو الذى بنى المسجد الأقصى، ومسجد دمشق، وأنشأ الطرق التى تيسر الوصول إلى بيت الله الحرام.

لقد مات الوليد.. وخلفه أخوه سليمان بن عبد الملك.. وقد بويع بالخلافة فى نفس اليوم الذى مات فيه أخوه.

مات الوليد.. ليبدأ عصر جديد.. تمنى فيه عمر بن عبد

العزيز أن ينتهى إرهاب الناس وتخويفهم من أمثال الحجاج، وغيره من طغاة الولاة، والذى ردد الناس ذعرا وخوفا كلماته عندما تولى أمر العراق، وصعد أحد مساجدها وهو ملثم الوجه، وبدلاً من أن يتحدث عن الإسلام ومبادئه، وأهمية التخلق بأخلاقه.. إذا به يجلس على المنبر قليلا، والعيون تتطلع إلى هذا الذى صعد المنبر فى شكله الغامض المريب.. وإذا به يقف ليقول لهم:

«إنى لأرى رءوسا قد أينعت وحان قطافها وإنى لصاحبها. وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى قد شمرت عن ساقها تشميراً».

إلى أن قال لهم متواعدا:

«وقسما بالله لآخذن الولى بذنب مولاه، والمقيم بذنب الظاعن، والمطيع بذنب العاصى، حتى يلقى الرجل أخاه فيقول له: انج سعد فقد هلك سعيد»

أسلوب فى الحكم فى غاية التعسف والاستبداد، وبدلا من أن يكون الحاكم مظلة أمن وأمان للناس، أصبح سوط عذاب يلهب ظهورهم، ويجعلهم فى هَمٍّ إذا ما أقبل النهار، أو إذا ما جاء الليل.. هم ثقيل عاشه الناس من ظلم الحكام رغم وهج الانتصارات فى الخارج.. ورغم وهج الازدهار الذى أعقب هذه الفتوحات الكبرى.

كان ابن عبد العزيز يأمل أن يأتى عهد الرخاء والأمن والاستقرار مع ابن عمه سليمان بن عبد الملك.. فهو قريب إلى نفسه.. وطيد العلاقة به.. وكان قبل أن يكون ابن عمه، وشقيق زوجته.. كان صديقا.. طالما تحدثا معا عن الإسلام والمسلمين وكان الساعد الأيمن لأخيه الوليد أثناء خلافته.. واستبشر الناس خيرا بسليمان.. وتمنوا أن تنزاح عن سماء حياتهم الولاة الغلاظ الشداد الذين لا يرعون لله عهدا، ولا يحكمون بالعدل، ولا يتواصون بالإحسان كما ينص كتاب الله وسنة رسوله الكريم.

وكان عمر بن عبد العزيز قريب إلى قلب ابن عمه سليمان ابن عبد الملك.. وكما يحدث دائما بين الأصدقاء والأقرباء وحدث ذات يوم أن تنازع غلمان عمر وغلمان الخليفة حول بئر من المياه، وضرب غلمان عمر غلمان الخليفة، الذين ذهبوا إلى الخليفة يشكون له ما فعله بهم غلمان عمر.

وأنكر عمر أنه على علم بما حدث، فقال له سليمان.

ـ كذبت!!

وظهر الغضب واضحا على وجه ابن عبد العزيز وقال للخليفة:

«ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين صاحبه ويضر أهله، وإن فى الأرض عن مجلسك هذا لسعة!».

وعزم عمر أن يأخذ زوجته وأولاده إلى مصر، ليعيش فى حلوان.. هذه المنطقة التى شاهدت طفولته يوم كان والده عبد العزيز بن مروان واليا على مصر..

ولكن الخليفة سرعان ما شعر بأنه أخطأ فى حق عمر، واعتذر له.

كان عمر فى ظل خلافة سليمان، التى لم تستمر طويلا.. - فقد مات بعد عامين وعدة شهور من خلافته (٩٦ ـ ٩٨ هـ) - قريبا من قلب الخليفة.. يستشيره فى كثير من الأمور، ويأخذ برأيه فى الكثير منها أيضا..

وكان سليمان بن عبد الملك قد أرسل جيشا لفتح القسطنطينية بقيادة أخيه (مسلمة بن عبد الملك) فحاصر المدينة، وذهب سليمان بنفسه ليكون قريباً من ساحة الحرب، واتخذ من مدينة (مرج دابق) فى شمال الشام مقرا لقيادته.. وكان سليمان شديد النهم إلى الطعام، حتى قيل أن سبب وفاته ترجع إلى التخمة من كثرة الطعام!

وقد توفى فى شهر صفر عام ٩٩ هـ، بعد أن أوصى أن يكون عمر بن عبد العزيز خليفته، وقد ارتاح لهذا الاختيار مرددا كلمته الشهيرة:

«والله لأعقدن عقدا لا يكون للشيطان فيه نصيب».

وخوفا من أن يتنازع بنى أمية فى هذا الأمر، وخاصة أن ولى عهده «أيوب بن سليمان» كان قد مات، وأن بقية أولاده ما زالوا صغارا، ومن هنا فقد آثر أن يخلفه عمر بن عبد العزيز فى الخلافة.. وكان ذلك بإيحاء من العالم الجليل رجاء بن حيوة، وأن يكون لأخوته الحق فى الخلافة بعد عمر.

وكتب سليمان وصيته وهو على فراش المرض «بسم الله الرحمن الرحيم.

هذا كتاب من عبد الله سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين، لعمر بن عبد العزيز.

إنى قد ولّيته الخلافة من بعدى، ومن بعده يزيد بن عبد الملك.. فاسمعوا له وأطيعوا، واتقوا الله، ولا تختلفوا فيطمع فيكم».

وهكذا تمهد الطريق لحكم عمر بن عبد العزيز.. أجمل فترة حكم فى التاريخ الأموى كله، بل أجمل حكم عرفه المسلمون عدلا ورخاء وأمنا طوال العهود التى تلته.. إنه عاد بالمسلمين إلى عهد الراشدين.

فقد سرت فى عصره قيم الإسلام وفضائله وتذكر الناس تلك السمات الجميلة التى تطل من عصر النبوة، وعصر الخلفاء الراشدين.

عصر اتسم بسريان القيم الروحية النبيلة، وقل فيها سعار التكالب على الدنيا وما فيها من السعى وراء الترف، والإسراف فى البحث عن المتع والملذات.!

إنها أيام مجيدة طافت فيها على الناس نسمات العهد النبوى.. حيث الجمال والجلال ونبل القيم والمقاصد.. والعمل فى الحياة كجسر لعالم أخر خالد.. يثاب فيه الإنسان أو يعاقب بما قدمت يداه.. عالم جديد تسوده روحانيات الإسلام والتآزر على البر والتقوى، وخشية الله فى الرعية ولا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.

ومن هنا كانت أيام ابن عبد العزيز من أروع أيام الإسلام.. رغم قصرها.. سنتان وخمسة شهور وعدة أيام.. ذاق الناس خلالها ما كانوا يصبون إليه من أمن وأمان ورخاء..

كانت أيام عمر التطبيق العملى لمبادئ الإسلام وقيمه.

ولجلال هذه الأيام وجمالها.. ظهرت أساطير كثيرة حول هذه الفترة من فترات حكم عمر بن عبد العزيز.

قالوا فيما قالوا من هذه الأساطير التى صدّقها الناس لروعة أيام عمر، أن فى أيامه كان يرعى الرعاة أغنامهم ولا تقربها الذئاب، فعدل عمر جعل رحمة الله تعم الجميع حتى أن الراعى لم يعد يخاف على غنمه من الذئاب، وعندما انتهى عهد عمر.. انقضت الذئاب من جديد على الغنم، وعرف الناس الذين يعيشون بعيدا عن الخلافة أن عمر قد لاقى ربه، عندما رأوا عودة الذئاب إلى الانقضاض على الأغنام!

أيام بالغة الجمال والجلال.. تلك التى عاشها الناس يرون التطبيق العملى لشريعة الله على الأرض.. فإذا بالناس يرون عجبا.. ويشاهدون ما لا يمكن أن يصدقه عقل.

فابن عبد العزيز الذى كان يلبس أجمل الملابس الحريرية، وسكن أجمل القصور، ويعشق الشعر، ويحب سماع الموسيقى والطرب الجميل العفيف، قد أصبح إنسانا آخر بمجرد أن تقلد أمور الخلافة.

نزع عن نفسه أزهى الملابس وأجملها، ولبس أخشنها.

وترك قصره وأمواله وأودعها بيت مال المسلمين ليعيش فى بيت بسيط من الطوب اللبن!

امرأته سليلة الخلفاء، وإخوتها من الخلفاء، تعيش معه عيشة الكفاف التى لا يستطيع أن يعيشها أفقر رجل من رعيته!

أولاد عمر يعينون والدهم العظيم فى مسئولياته الجسيمة، ويأكلون من عمل أيديهم ويشجعون والدهم على السير فى طريقه الذى اختاره لنفسه، ليعود بالناس إلى أيام جده العظيم عمر بن الخطاب.

صورة مشرقة بالغة الإشراق.. تلك التى عرفها التاريخ الإسلامى فى خلافة عمر بن عبد العزيز.

ومن هنا فقد ظل اسمه نورا يتلألأ فى جبين التاريخ إلى

اليوم، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. . لأنه كان التجسيد الحى لقيم الإسلام ومبادئه، ومثل اعتقاداته وتشريعاته. . إن هذا الإنسان الذى كانت تتوق نفسه إلى معالى الأمور، عندما وصل إلى أعلى منصب فى الدولة، وأصبح خليفة لأعظم امبراطورية عرفها التاريخ، تمتد من الصين حتى الأندلس. . تاقت نفسه إلى ما عند الله. . إلى عالم ليس فيه ملك وأمير ووزير وصعلوك. . عالم ترتفع فيه الدرجات وتنخفض بما قدم فيه الإنسان من أعمال فى دنياه.

إن عمر الذى ظل مدة خلافته يتابع ما يجرى فى الولايات التى تخضع له، ويراقب ولاتها وقضاتها، ويحس نبض الفقراء والبسطاء ويعيد المظالم إلى أهلها. . والذى أبعد عن نفسه الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون، والمنافقون الذين يفسدون الحكام، وأصحاب المصالح والهوى. . ليكون قريبا من الناس يعيش لهم وبهم. . ليس بينهم وبينه حجاب أو حراس، أو من يزينون له البطش بالناس باسم المحافظة على حيدة الحكام وأهل الحكم. . هذا الإنسان العظيم بسلوكياته عاش فى ضمير التاريخ نور هداية لكل من يريد أن يعرف أن الطريق إلى الله يأتى عن طريق عمل الخير لخلق الله.

وأن أقرب الناس إلى الله حاكما كان أو محكوما هو العمل بما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله العظيم.

وكان من مآثر عمر التى لا تنسى، أنه شاهد الكثير من الأحاديث النبوية الشريفة قد دست على الرسول عليه الصلاة والسلام، واستخدامها أصحاب المصالح استخداما سيئا للتقرب والزلفى من السلطة. . فأمر بتدوين الأحاديث الصحيحة، وبذلك أسدى خدمة جليلة للإسلام، لا ينساها له التاريخ.

* * *

خلافة عمر بن عبد العزيز

تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة.. والإمبراطورية الإسلامية تمتد وتتسع أرجائها على قارات آسيا وإفريقيا وأوربا..

وكان عليه أن يسوس الناس بمنطق جديد.. ورؤية جديدة.. والمنطق ليس من عنده.. والرؤية أيضا ليست من عنده.

ولكن مستقاه من كتاب الله وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام والخلفاء الراشدين التى كانت أيامهم امتدادا لأيام رسول الله، لولا بعض الفتن التى أشعلت الحرب الأهلية فى الإسلام فى زمن عثمان وعلى رضى الله عنهما.

إنه يريد أن ينهج نهج الخلفاء البررة، سائرا على منهج جده العظيم عمر بن الخطاب.

وكان أيضا يقدر موقف الإمام على رضى الله عنه، ويرى فيه عالما جليلا، وإماما ورعا، وكان حريصا على أن يعيد لبنى هاشم حقهم الذى أهدره بنو أمية.

وقد حرص عمر بن عبد العزيز فى خلافة ابن عمه سليمان ابن عبد الملك أن يقرب منه العلماء والزهاد، وفضلاء الناس،

حتى لا ينحرف عن الجادة، وخاصة وقد وجد فى ابن عمه ميلا إلى الورع والتقوى والإصلاح، وحبا فى الجهاد.

ومن الذين قربهم إليه رجاء بن حَيْوه الذى لعب دورا هاما فى تولية عمر الخلافة..

وكان سليمان مع كراهيته للنصائح.. فإنه أخذ يستمع ذات يوم لأحد الزهاد (أبو حازم الأعرج).. فقد جاء يوما بصحبة عمر بن عبد العزيز إلى الخليفة، وسأله الخليفة وأجاب الزاهد.

قال له سليمان: يا أبا حازم ما لنا نكرة الموت؟

قال: لأنكم عمرتم دنياكم وأخربتم آخرتكم، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب.

ـ فأخبرنى كيف القدوم على الله؟

ـ أما المحسن فكالغائب يأتى أهله مسرورا، وأما المسئ فكالعبد الآبق يأتى مولاه محزونا.

ـ فأى الأعمال أفضل؟

ـ أداء الفرائض مع اجتناب المحارم.

ـ فأى القول أعدل؟

ـ كلمة حق عندما تخاف وترجو.

ـ فأى الناس أعقل؟

ـ من عمل بطاعة الله.

ـ فأى الناس أجهل؟

ـ من باع آخرته بدنيا غيره.

ـ عظنى وأوجز؟

ـ يا أمير المؤمنين، عظّم ربك، وإياك أن يراك حيث نهاك عنه، ويفقدك من حيث أمرك.

هنا بكى سليمان بكاءً شديداً، وعندما أراد بعض الجلوس أن يطلب من الزاهد أن يصمت حتى لا يزيد أحزان أمير المؤمنين، أمره عمر بن عبد العزيز بالسكوت قائلا له:

ـ اسكت فإن الله عز وجل أخذ الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه.

وعندما عاد الرجل الزاهد إلى منزله، أرسل له الخليفة مبلغا من المال فرفضه هذا الزاهد لأن نصيحته كانت لله وليس من أجل أن يأخذ على نصيحته أجرا، وقال لمن يحمل هذا المال.

ـ قل له: يا أمير المؤمنين، ما أرضاه لك، فكيف أرضاه لنفسى.

إن عمر يتذكر ذلك، وقد آلت إليه أمور الحكم. ويتذكر سيرة أبى بكر وعمر.

ولأن فترة خلافة عمر بن عبد العزيز كانت من أخصب فترات التاريخ الإسلامى، ومن هنا فقد ذكر الرواة والمؤرخون

الكثير من الروايات العجيبة التى رددها الناس.. وكلها تدل على أن التاريخ استقبل بخلافة ابن عبد العزيز عهدا جديدا وفريدا فى التاريخ.. فرأينا وهيب بن ورد يقول:

ـ بينما أنا نائم رأيت كأن رجلا دخل من باب شيبة وهو يقول أيها الناس ولى عليكم كتاب الله.

فقلت: من؟

فأشار إلى ظفره فإذا مكتوب عليه: ع.م.ر فجاءت بيعة عمر ابن عبد العزيز.

* * *

وإن عمر ليتذكر الأيام الأخيرة لسليمان بن عبد الملك وهو على فراش المرض، وقد طلب أن يحضروا له رجاء بن حَيْوه.. كان يشعر أن الموت قاب قوسين أو أدنى، وأنه سوف يلاقى ربه.. وطلب أولاده.. بعد أن أمر أن يلبسوهم ملابس الخلافة، فإذا بهم يرزحون تحت أعباء هذه الملابس لا يستطيعون حملها، فاعتصره الحزن وقال: يا رجاء

إن بنى صبية صغار

أفلح من كان له كبار

وكان عمر بن عبد العزيز حاضرا فقال له:

ـ يا أمير المؤمنين: يقول الله تبارك وتعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥] وطلب الخليفة من أولاده أن يتقلدوا السيوف، فلم يستطيعوا حملها فانتابه الحزن وردد:

إن بـنـى ضـعـيـفــون

أفـلـح من كـان له ربعيـون

* * *

ويروى الرواة كيف أن سليمان أخذ يقلب الأمر من جميع وجوهه مع الرجل الصالح رجاء بن حيوّه، ثم طاف بخياله عمر ابن عبد العزيز، وما كاد يقترح هذا الاسم حتى تهلل وجه رجاء ابن حيوه وشجعه على اختياره خليفة للمسلمين من بعده.. و.. هكذا سارت الأحداث حتى آلت الخلافة لعمر.

ودعا رجاء كبار بنى أمية.. وعرض عليهم رغبة الخليفة ليبايعوا من استخلفه الخليفة من بعده ولم يقل لهم عن اسمه.. حتى بايعوا جميعا.. وشعر عمر بن عبد العزيز بأن الرجل سيلاقى ربه عن قريب، وخشى أن يكون هو المقصود بالبيعة.. أنه لا يريد الخلافة.. ولا يطلبها ولا يسعى إليها.. إنه يريد أن يعيش بقية عمره لله وفى الله.. لا تثقله أعباء الخلافة.. وما أشدها.. لأن الخلافة عند ابن عبد العزيز ليست ملكا ولا جاها.. ولا سلطانا.. ولا نفوذا.. ولكنها مسئولية جسيمة.. أمام الله أولا وقبل كل شىء.. وأمام ضميره.. وما أروعه ضمير عمر.. فيقدم لرجاء

يرجوه أن يبعد عن الخليفة هذا الخاطر لو كان هذا الخاطر يطوف بذهن الخليفة أن يوليه الخلافة من بعده.

وإذا برجاء وهو لا يرى أن هناك ما يناسب المنصب الخطير سوى عمر.. فيحاول أن يبعد خياله عن استعجال الأمر حتى لايفسد الخطة.. ويذهب عمر إلى الخليفة..

لقد استمع رجاء إلى عمر وهو يقول له:

ـ يا رجاء.. أنى أرى أمير المؤمنين فى الموت ولا أحسبه إلا سيعهد.. وأنى أناشدك الله إذا ذكرنى بشىء من ذلك أن تصرفه عنى.. وإن لم يذكرنى ألا تذكرنى له فى هذا الأمر أبدا.

ورد عليه رجاء:

ـ لقد ذهب ظنك مذهبا بعيدا.. ما كنت أحسبك تذهب إليه.. أتظن بنى عبد الملك يدخلونك فى أمورهم..

وعاد عمر إلى منزله سعيداً بأنه بعيد عن منصب الخلافة..

وشعر رجاء أن الخليفة فى النزع الأخير.. وأخذ ينطق بالشهادتين، وكانت آخر كلماته دعاء إلى الله:

ـ اسألك منقلبا كريما.. ثم انطلقت الروح إلى أكـرم جوار..

وخرج رجاء.. وأرسل إلى كعب بن حامد وجمع الناس فى مسجد دابق.. وقرأ عليهم وصية الخليفة بأن يلى الأمر من بعده

عمر بن عبد العزيز.. وكان عمر فى مؤخرة المسجد.. فإذا به ينتابه الذهول من المفاجأة.. وأخذ الناس يبايعونه.. وصعد هشام ابن عبد الملك إلى المنبر ليبايع عمر فقال:

- إنا لله وإنا إليه راجعون..

ورد عليه عمر:

- نعم إنا لله وإنا إليه راجعون الذى صرت أنا وأنت نتنازع هذا الأمر..

وقام عمر إلى المسجد.. وكانت كلماته تتناهى إلى قلوب الناس وعقولهم فتملؤها بالأمل والسكينة فى سبيل الإسلام.. قال عمر بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

- «أيها الناس.. إنى ابتليت بهذا الأمر من غير رأى كان منى فيه.. ولا طلب له، ولا مشورة من المسلمين.. وإنى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى فاختاروا لأنفسكم..

أيها الناس: إنى والله ما سألتها الله فى سر ولا علانية قط.. فمن كره منكم فأمره إليه..

وارتفعت أصوات الناس فى المسجد مبايعة.. وقطعوا عليه طريق التراجع..

وكان أول خطب عمر للناس.. فاتحة عهد جديد.. قال لهم بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«أوصيكم بتقوى الله فإن تقوى الله خلف من كل شىء، وليس من تقوى الله عز وجل خلف.. واعملوا لآخرتكم فإن من عمل لآخرته كفاه الله تبارك وتعالى أمر دنياه، وأصلحوا سرائركم يصلح الله الكريم علانيتكم.. وأكثروا من ذكر الموت.. وأحسنوا الاستعدد قبل أن ينزل بكم هادم اللذات.. وإن من لا يذكر من آبائه - فيما بينه وبين آدم عليه السلام - أباً حياً، لمعرق فى الموت.. وإن هذه الأمة لم تختلف فى ربها عز وجل ولا فى نبيها صلى الله عليه وسلم ولا فى كتابها.. إنما اختلفوا فى الدينار والدرهم.. وإنى والله لا أعطى أحداً باطلاً، ولا أمنع أحداً حقاً.

ويتابع حديثه قائلاً:

- يا أيها الناس.. من أطاع الله وجبت طاعته، ومن عصى الله فلا طاعة له.. أطيعونى متى أطعت الله، فإذا ما عصيت الله فلا طاعة لى عليكم».

وبتولى عمر الخلافة بدأت صفحة جديدة.. بالغة الروعة والاشراق فى تاريخ الإسلام.

* * *

شيء عجيب ومدهش هذا الإنسان العظيم.. إن دارس سيرته يرى نفسه أمام شخصية بالغة الإعجاز.. ما الذى أصاب عمر عندما تولى الخلافة؟.. كيف تغير حاله تغيراً تاماً؟.. لم يعد هذا الإنسان الذى يشتم رائحة عطوره على بعد.. ولا الإنسان المتبختر فى مشيته.. ولا هذا الإنسان الذى ولد وسط النعيم والجاه والسلطان.. لقد أصبح شخصاً آخر.. تحول إلى ملاك على هيئة إنسان.. بلغ خوفه من الله الذروة.. فأصبح كثير البكاء.. دائم التأمل.. متواصل الفكر.. لقد شعر أنه مسئول عن كل إنسان فى طول البلاد الإسلامية وعرضها.. الفقراء واليتامى والعجائز.. مسئول عن أمن الناس جميعاً.. وأمانهم ولقمة عيشهم.

وفى نفس الوقت مسئول سياسى عن كل مشاكل البلاد فى صراعها مع الرومان.. وفى تأمين حدودها مع الأعداء.. وتثبيت أركان الدولة فى البلاد المفتوحة.. بجانب حرصه على أن يشعر الناس جميعاً أنهم تحت راية الإسلام سواسية لا فرق بين غنى وفقير وقوى وضعيف.. أو صاحب حسب ونسب.. وآخر بلا حسب ولا نسب.. الكل يجب أن يشعروا بأنهم فى أمة دستورها القرآن، وسنة الرسول الكريم.. والحب يجب أن يسود الجميع.. وأن يبتعد شبح الأحقاد والكراهية بين الناس.

وفى ظل هذه المفاهيم شعر الناس أن هذا المجتمع يعود إلى

أعظم أيام الإسلام.. إلى عصر النبوة.. بما فيها من جلال وقداسة وورع.

* * *

لقد شاهد الناس عجبا فى أول يوم له من أيام الخلافة.. لقد بدأ الناس بخطاب يقول لهم.. أنه لا طاعة لهم فى معصية الخالق.. وعليه أن يتبعوه مادام يسير على نهج الكتاب والسنة وإلا فعلى الناس أن يخلعوا مبايعتهم له.. ورأوه عازفا عن جلال الملك.. فإذا هو يبكى وسط الناس فى المسجد..

وفهم الذين يعرفونه أنه بكى خوفا من الله.. ومن التبعات التى آلت إليه.. وفهم الخبثاء الذين لم يعرفوه أنه بكاء الفرح بما آل إليه من مجد وسلطان وملك..

ولكن الجميع عرفوا بعد أيام قلائل من حكم عمر.. أن الحياة تعود إلى أيام جده العظيم ابن الخطاب فى ورعه وقوته وتقواه..

لقد صلى عمر على سليمان بن عبد الملك.. ثم وارى جسده التراب..

وعاد الخليفة.. ورأى ـ وفى نظره ـ يا هول ما رأى.. خيول الخلافة والحراس والجنود.. وكوكب ضخم جليل ليكون فى بيعة الخليفة وهو يتوجه إلى قصر الخلافة..

ما لعمر ولهذا كله..

أنه ليس رجل دنيا.. إنه رجل يعمل لدنياه كجسر لأخراه..

ماله وهذه المظاهر.. ولم يعد يستهويه كل هذه الشكليات.. فركب بغلته.. وقال لصاحب الشرطة:

ـ تنح عنى، مالى ومالك؟ إنما أنا رجل من المسلمين..

وقالوا أن رجلا قال له: تفرغ لنا يا أمير المؤمنين.. فما كان من عمر إلا أن قال:

قــد جـاء شغـل شاغـل

وعدلت عن طريق السلامة

ذهب الفــراغ فــلا فـراغ

لنـا إلــى يــوم القيـامــة

والذى يتابع خطوات عمر بعد ذلك فى خلافته لا يسعه إلا أن يرى هذه الحقيقة.. فلم يعرف عمر الفراغ.. بل كان عمله متصلا آناء الليل وأطراف النهار للعمل على خدمة الرعية.. دون أن ينسى واجباته نحو الله..

* * *

تولى عمر الخلافة.. وتوالت عليه الهموم والأحزان.. ولم تكن أحزانه وهمومه سوى أنه كان يشعر أنه مسئول أمام الله عن كل فرد من الرعية.. وكانت نفسه تواقة.. كلما وصل إلى مركز تاق إلى ما هو أرفع منه.. وليس هناك أرفع فى الحياة من منصب

الخليفة.. إلا أن نفسه تاقت إلى حب الآخرة.. والعمل لها.. ومن هنا كان التغير الهائل فى فكر عمر.. تغير كان بمثابة انقلاب فكرى لم يشهد له التاريخ مثيلا..

فقد قرر الرجل أن يعيش لله وبالله.. وأن يكون مثالا رائعا للعدل والرحمة.. ويحقق مطالب الناس دون أن ينسى أنه هو الآخر مسئول عن نفسه أمام الله.. إنه يحاسب نفسه أشد ما يكون الحساب.. وما أقسى حساب عمر مع نفسه..

إنه مع أول أيام الخلافة يقرر أن يرد المظالم إلى أصحابها.. وكان ابنه عبد الملك يحب والده.. ويرى فى والده العظيم مثلا أعلى يجب أن يحتذى.. وفى أول يوم من أيام الخلافة.. وبعد أن كفن سليمان بن عبد الملك.. وأراد عمر أن يستريح فى الظهيرة.. سأله ابنه عبد الملك عما ينوى أن يفعله.. فقال له عمر:

أنه سوف يرد المظالم إلى أصحابها.. وتعجب عبد الملك ولماذا لا يرد هذه المظالم على الفور.. ولا ينتظر حتى ينتهى من صلاة الظهر ويستريح.. لقد سمع عمر ابنه يقول له:

- يا أمير المؤمنين.. من لك أن تعيش إلى الظهر..

وما كان من عمر إلا أن شعر بالسعادة تجرى فى دمائه.... إن ابنه يعاونه على رد المظالم.. وإن من صلبه خرج من يتقى الله ويخشاه.. فقبل ابنه بين عينيه وقال:

ـ الحمد لله الذى أخرج من صلبى من يعيننى على دينى . .

وخرج على الفور . . وأمر المنادى أن ينادى بين الناس . . لمن يكون له تظلم فليتقدم إلى أمير المؤمنين . . ورد المظالم إلى أهلها غير عابىء باعتراض بنى أمية .

وكيف يعبأ بهم . . وقد ابتدأ بنفسه . . ورد أمواله وضياعه إلى بيت المال . . ولم يبق له إلا قطعة أرض صغيرة من الأرض بالسويداء . . كان قد اشتراها من ماله الخاص . . وكانت تدر عليه مائة وخمسين ديناراً . . وقرر أن يعيش على هذا المبلغ بعد أن كان دخله من ممتلكاته يصل إلى أربعين ألف دينار كل عام .

شخصية عجيبة . . إن لها من قوة الإرادة والتصميم أن يحقق ما تاقت إليه نفسه من التقشف والزهد فى الحياة والعمل على إعطاء كل ذى حق حقه مهما كانت أشواك الطريق .

لقد بكى عندما تولى الخلافة . . وعندما سألته زوجته عما يبكيه كان جوابه :

ـ لقد توليت أمر أمة محمد . . ففكرت فى الفقير والبائس والمريض والضائع والمقهور والأسير والشيخ الكبير ، وعرفت أن ربى سائلى عنهم جميعاً ، فخشيت أن تثبت لى حجة فبكيت .

ولقد كانت البداية . . بداية الحكم تعطى مؤشراً للناس أنهم أمام شخصية جديدة . . تختلف تماماً عن شخصيات خلفاء بنى أمية الذين حكموا البلاد . . وأن الحياة سوف تأخذ فى عهده

مساراً آخر.. وحياة أخرى.. وأن ريح أيام النبوة وأيام الشيخين تهب على المجتمع مبشرة بعودة تلك الأيام الباهرة لتطل على مجتمع أفسده الترف.. والجشع.. والتكالب على الدنيا.. والانغماس فى شهواتها.

وكان إحساس الناس صادقاً.. ففى اللحظات الأولى من الحكم أمر عمر أن تباع مواكب الخلافة.. ويدخل ثمنها إلى بيت المال.. كذلك أمر أن تباع الأفراس والسرادقات التى كانت مخصصة للخلفاء.. وتعود أثمانها إلى بيت المال.

لقد رد عمر المظالم إلى أهلها كما قلنا غير عابىء باحتجاج أحد.. أنه يريد أن يرضى ضميره.. وقبل ذلك يرضى ربه أولاً.. وخطب الناس وقال:

ـ إن السابقين أعطوا عطايا ما كان لهم أن يعطوها.. وما كان لها أن تقبل.. فرددت الحقوق على أصحابها.. ورفعت القطائع والأموال إلى بيت مال المسلمين ،وثنيت أهلى ..

ووجد أمراء بنى أمية.. أنهم أمام إنسان لا يخشى إلا الله..ولا يأبه بهم ولا باحتياجاتهم ..فعقدوا اجتماعا برئاسة عمر بن الوليد بن عبد الملك.. واخذوا يتدارسون أوضاعهم وكيف يكون موقفهم من الخليفة الجديد.. وقرر عمر بن الوليد أن يرسل خطابا يتضمن احتياج الأسرة .. وكان الخطاب شديد اللهجة..وكان يتصور أن مثل هذا الخطاب سوف يثنى عمر عن

عزمه ، فيعود ويرجع كل شيء على ما كان عليه. . ونسوا ما قاله عمر بن عبد العزيز لعمته عندما جاءت تتودد إليه. . وتطالبه ألا يكون عنيفا مع الأسرة الحاكمة. . وتحذره من غضبهم. . لقد قال لها عمر:

- «كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا وقانى الله شره». .

لقد قرأ عمر بن عبد العزيز الرسالة التى أرسلها له عمر بن الوليد فحزن لأن قومه لم يفهموه. . وأنه عازم على السير فى طريق العدل والمساواة. . والحكم بمنهاج الله مهما كانت الظروف. . لقد قرأ عمر:

- «إنك أزريت على من كان قبلك من الخلفاء، وعبت عليهم، وسرت بغير سيرتهم. . وسميتها المظالم. . بغضاً لهم وشنآناً لمن بعدهم من أولادهم. . وقطعت ما أمر الله به أن يوصل. . إذ عمدت إلى أموال قريش ومواريثهم فأدخلتها بيت المال جورا وعدوانا. .

يا ابن عبد العزيز. . اتق الله وراقبه إن شططت، لم تطمئن على منبرك حتى خصصت أول قرابتك بالظلم والجور، فوالذى خص محمدا صلى الله عليه وسلم بما خصه به، لقد ازددت من الله بعدا فى ولايتك هذه إذ زعمت أنها عليك بلاء، فاقصر بعض ميلك واعلم أنك بعين جبار وفى قبضته، ولن تترك على هذا». .

قرأ عمر هذا الخطاب.. وبإيمان من لا يخاف سوى الله.. رد عليه بقوله:

بسم الله الرحمن الرحيم:

«من عبد الله أمير المؤمنين إلى عمر بن الوليد.. السلام على أشرف المرسلين.. والحمد لله رب العالمين أما بعد؛

فانه بلغنى كتابك وسأجيبك بنحو منه.. أما أول شأنك، يا ابن الوليد فإن أمك بنانة أمة السكون.. كانت تطوف فى أسواق حمص.. وتدخل فى حوانيتها.. ثم الله أعلم بها، اشتراها ذبيان بن ذبيان من فىء المسلمين، فأهداها لابيك، فحملت بك، فبئس المحمول وبئس المولود.

ثم نشأت فكنت جبارا عنيدا.. تزعم أنى من الظالمين، لأنى حرمتك وأهل بيتك فىء الله عز وجل.. الذى هو حق القرابة والمساكين والأرامل.. وإن أظلم منى، وأترك لعهد الله، من استعملك صبيا سفيها على جند المسلمين.. تحكم بينهم برأيك، ولم تكن له فى ذلك نية إلا حب الوالد لولده.. فويل لك وويل لأبيك.. ما أكثر خصماءكما يوم القيامة.. وكيف ينجو أبوك من خصمائه؟

وإنَّ أظلم منى، وأترك لعهد الله، من استعمل الحجاج بن يوسف على خمس العرب.. يسفك الدم الحرام.. ويأخذ المال الحرام..

وإن أظلم منى، وأترك لعهد الله، من استعمل قرة بن شريك أعرابيا جافيا على مصر.. وأذن له فى المعازف واللهو والشراب.

وإن أظلم منى، وأترك لعهد الله من جعل لعالية البربرية سهماً فى خمس العرب.

فرويدا يا ابن بنانة، فلو التقت حلقتا البطان، ورد الفئ إلى أهله، لتفرغت لك ولأهل بيتك، فوضعتهم على المحجة البيضاء، فطالما تركتم الحق وأخذتم فى بنيات الطريق.. ومن وراء هذا من الفضل، ما أرجو أن أكون قد رأيته، بيع رقبتك.. وقسم منك بين اليتامى والمساكين والأرامل، فإن لكل فيك حقا والسلام علينا ولا ينال سلام الله الظالمين».

يا للروعة.. ويا للعدالة.. ويا للقوة فى الحق.. إنه بالفعل امتداد لجده العظيم عمر بن الخطاب.. إنه فى هذا الخطاب لعمر ابن الوليد.. كبير العائلة الأموية.. يضعه فى وزنه الحقيقى فقط.. وأنه لا يهابه ولا يخشاه ولكنه يدينه ويدين حكم بنى أمية.. ثم يجعله فى موقف لا يستطيع أن يرفع رأسه مرة ثانية.. ولا يجرؤ على التطاول على هيبة السلطة العادلة.. ففى كل سطر من سطور الخطاب.. ترى روعة الإيمان العمرى برعاية المستضعفين من الفقراء والأرامل واليتامى الذين لهم الحق فيما سلبه منهم خلفاء بنى أمية.. ويذكر ابن الوليد بالمظالم التى

اقترفها هؤلاء الخلفاء فى حق الرعية عندما عينوا الطغاة على رقاب العباد من أمثال الحجاج بن يوسف الثقفى على العراق.. وقرة بن شريك يسوم المصريين سوء العذاب..

ثم ينهى خطابه القاطع كحد السيف بأنه حتى لا يستحق مجاملة إنهاء الخطاب بالسلام.. لأن السلام لا يستحقه الظالم..

ثم تبلغ حصافته القمة وهو يأمر فى أول لحظات خلافته بعودة جيش أسامة بن عبد الملك من القسطنطينية.. وهذا الجيش كان قد ذهب لحصار القسطنطينية والعمل على سقوطها فى يد المسلمين.. ولم يحقق الجيش المهمة التى وكلت إليه.. ورفض سليمان بن عبد الملك أن يصدر أمرا بانسحاب الجيش الذى لم يحقق انتصارا، ولا أمل له فى الانتصار تحت الظروف التى كان يمر بها..

وما كان من عمر إلا أن أصدر أوامره بالانسحاب.. فهو لا يرضى أن يحطم شباب الأمة من أجل مجد.. أو كبرياء شخصى.. وطالما نصح الخليفة سليمان بن عبد الملك عندما كان خليفة أن يأمر بعودة الجيش، ولكن الرجل رفض نصيحة عمر.. حتى لو كان هذا الجيش فى وضع بالغ الحرج.. ولكن عمر وضع الأمور فى نصابها.. فى أول ساعات حكمه.. حتى يمكن لضميره اليقظ أن يستريح.. إنه يأبى أن ينام ليلة واحدة فى الحكم.. وهناك أوضاع خاطئة يمكن أن تحل بقرار جرئ..

ولم يكن عمر بن عبد العزيز فى قراراته يمتدح.. ولا مدع أنه جاء بعبقرية خارقة فى السياسة وإدارة الحكم.. ولكن الرجل كان يعرف أن الطريق واضح.. وسهل.. وبسيط.. ولا مجال فيه للعبقرية الفردية.. ولا مجال فيه لاختناق زمام الفكر بما لا يليق.. فالإسلام دين الفطرة.. تنبع عظمته من بساطته.. وتناسبه مع الفطرة.. فهو يخطب فى الناس قائلا:

ـ «أيها الناس.. إنه ليس بعد نبيكم نبى، وليس بعد الكتاب الذى نزل عليه كتاب.. فما أحل الله على لسان نبيه، فهو حلال إلى يوم القيامة.. وما حرم الله على لسان نبيه فهو حرام إلى يوم القيامة.. ألا وأنى لست بقاض إنما أنا منفذ.. ولست بمبتدع، وإنما أنا متبع.. ولست بخيركم.. إنما أنا رجل منكم غير أنى أثقلكم حملا»..

روى ابن كثير أن عمر بن عبد العزيز عندما تولى خلافة أمر المسلمين خطب الناس.. فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

ـ «أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس.. وإلا فليفارقنا.. يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها، ويعيننا على الخير بجهده، ويدلنا من الخير على ما نهتدى إليه، ولا يغتابن عندنا أحدا، ولا يعرضن فيما لا يعنيه».

فانقشع عنه الشعراء والخطباء، وثبت معه الفقهاء والزهاد.. وقالوا ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل حتى يخالف فعله قوله..

ولنقف قليلا عند هذه الفقرة.. فلأول يوم من خلافة الرجل يوضح منهجه فى الحكم.. وفى الذين يريدون أن يكونوا على مقربة منه.. فمنهاجه واضح.. السعى عنده لخير الناس، والمساعدة على ذلك، ويكون دليلا على رسم الطريق السليم للناس.. بلا اغتياب لأحد.. أو تدخل فيما لا يعنيه.

* * *

وكان من الطبيعى أن ينفض من حوله متعودوا النفاق من الشعراء وأصحاب المصالح الذاتية.. وأن يتقرب إليه الفقهاء والزهاد.

ولقد ظل عمر طوال فترة حكمه القصيرة مخلصا إخلاصا تاما لهذا المبدأ لا يحيد عنه قيد أنملة.. فما عرف عنه يوما أنه قرب إليه منافقا.. ولا وصوليا.. ولا شاعرا يرتزق بحلو الكلام.. لأن أجمل الشعر أكذبه كما يقولون.

ويقول الرواة.. أنه لما ولى عمر بن عبد العزيز استدعى إليه رجاء بن حيوه، وسالم بن عبد الله، ومحمد بن كعب.. وطلب منهم النصيحة..

فقال له محمد بن كعب:

ـ «اجعل الشيخ أبا.. والشاب أخا.. والصغير ولدا.. غير أباك.. وصل أخاك.. وتعطف على ولدك..

وقال رجاء:

- «ارض للناس ما ترضى لنفسك.. وما كرهت أن تؤتى إليك فلا تأته إليهم.. واعلم أنك أول خليفة يموت»..

وقال سالم:

- «اجعل الأمر واحدا.. وصم فيه عن شهوات الدنيا.. واجعل آخر فطرك فيه الموت»..

وصمت عمر وهو يستمع إلى من يخلصون له النصيحة ثم قال:

- «لا حول ولا قوة إلا بالله»..

انه عمر بن عبد العزيز.. الذى كان يوم الخلافة بالنسبة له يوما فاصلا فى نظرته للأمور والحياة.. فقد صمم على أن يكون إنسانا آخر.. ليس له هم إلا الحرص على المسلمين ومستقبل المسلمين.. وأن يهب نفسه لله.. حتى أن الرواة يقولون أنه عندما رجع من جنازة سليمان بن عبد الملك ردد هذين البيتين من الشعر:

فلولا التقى ثم النهى خشية الردى

لعاصيت فى حب الصبا كل زاجر

قضى ما قضى فيما مضى ثم لا ترى

له صبوة أخرى الليالى الغوابر

ومفتاح معرفة شخصية هذا الخليفة الورع.. ومساره فى فترة خلافته.. تتضح فى حرصه على أن يسير سيرة عمر بن الخطاب.. وقد أرسل رسالة إلى سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب.. يطلب فيه أن يرسل له كتابا يبين له فيه كيف كان جده العظيم عمر بن الخطاب يسوس الناس.

والذين درسوا سيرة هذا الخليفة الزاهد، يرون أنه كان عند وعده.. وأنه سلك طريق ابن الخطاب.. رغم أن الحياة أيام ابن الخطاب لم تكن كأيام ابن عبد العزيز.. كانت أيام ابن الخطاب ما زالت الدفعة الروحية الهائلة التى تركها الرسول عليه الصلاة والسلام تملأ الحياة بعطر الروح..

وكان الناس غير الناس.. فقد عاشوا زمن النبوة.. ورأوا أعظم من سارت له على الأرض خطى.. النبى الكريم فى جهاده العظيم.. عليه الصلاة والسلام.. أما فى عصر ابن عبد العزيز.. فقد امتلأت الحياة بالأهواء.. وكانت طموحات معظم الناس متجهة نحو الاغتراف من متع الحياة.. كما تسلل الجدل.. والمناقشات إلى النفوس.. وكانت هناك الفرق المختلفة.. كالخوارج.. وطوائفهم.. والذين تشيعوا لعلى.. ونادوا بأفكار رفضها الإمام نفسه فى حياته..

فأحدثوا انقسامات فى الأمة.. فى الوقت الذى كانت الأمة فى حاجة إلى الوحدة.. وهى تنطلق بكل قوتها وعنفوانها نحو

الفتح فى مختلف أرجاء الدنيا لإعلاء كلمة الله.. ونشر الإسلام بمبادئه السمحة الطيبة الطاهرة..

مع كل هذه الظروف فقد أبى ابن عبد العزيز إلا أن يعيد الحياة إلى نبعها الصافى.. فما أكثر ما كان يرسل إلى ولاته.. يذكرهم أولا وقبل كل شىء بالخوف من الله.. والعمل على مرضاته.. وتقواه.. والإخلاص له.. وذلك بأن ينعكس على معاملاتهم للرعية..

كتب إلى أحد ولاته:

- «اذكر ليلة تمخض بالساعة.. فصباحها القيامة.. فيالها من ليلة ويا له من صباح.. وكان يوما على الكافرين عسيرا»..

وكان يعتقد أن عماله إذا لم تصلحهم السنة فلا أصلحهم الله..

وشخصية عمر العظيمة تعرف أيضا من صحبته لاختيار أخيار الناس.. وطلب النصيحة منهم دون تبرم.. فما كان يكره إلا المنافقين.. ولنقف قليلا عند الرسالة التى أرسلها له الحسن البصرى، بناءً على طلب أمير المؤمنين.. وهى تدور حول صفات الحاكم العادل.. كتب له الحسن البصرى:

- «اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل.. وقصد كل جائر.. وصلاح كل فاسد.. وقوة كل

ضعيف.. ونصفة كل مظلوم.. ومقرع كل ملهوف.. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله.. الرفيق الذى يرتاد لها أطيب المراعى.. ويزودها عن مواقع الهلكة.. ويحميها من السباع، ويكفيها من أذى الحر والقر..

والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده.. يسعى لهم صغارا.. ويعلمهم كبارا.. يكتسب لهم فى حياته.. ويدخر لهم بعد مماته..والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالأم الشفيقة الرفيقة بولدها.. حملته كرها.. ووضعته كرها.. وربته طفلا.. تسهر بسهره.. وتسكن بسكونه.. ترضعه تارة.. وتفطمه أخرى.. وتفرح بعافيته وتغتم بشكايته.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين.. وصى اليتامى.. وخازن المساكين يربى صغيرهم.. ويمون كبيرهم.. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح.. تصلح الجوانح بصلاحه.. وتفسد بفساده.. والإمام العادل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده.. يسمع كلام الله ويسمعهم.. وينظر إلى الله ويريهم.. وينقاد إلى الله ورسوله ويقودهم..

فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كعبد ائتمنه سيده.. واستحفظه ماله وعياله.. فبدد المال.. وشرّد العيال.. فأفقر أهله، وفرّق ماله..

واعلم يا أمير المؤمنين.. أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الجنائب والفواحش.. فكيف إذ أتاها من يليها.. وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده فكيف إذ قتلهم من يقتص لهم..

واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده.. وقلة اشباعك عنده.. وأنصارك عليه.. فتزود له وما بعده من الفزع الأكبر.

واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلا غير منزلك الذى أنت فيه، يطول فيه ثواؤك ويفارقك أحباؤك.. ويسلمونك فى قعر فريدا وحيدا.. فتزود له ما يصحبك يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه..

واذكر يا أمير المؤمنين إذا بعثر ما فى القبور.. وحصل ما فى الصدور.. فالأسرار ظاهرة.. والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.. فالآن يا أمير المؤمنين وأنت فى مهل.. قبل حلول الأجل وانقطاع الأمل.. ولا تحكم يا أمير المؤمنين فى عباد الله حكم الجاهلية.. ولا تسلك بهم سبل الظالمين.. ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين فإنهم لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمه.. فتبوء بأوزارك.. وأوزار مع أوزارك.. وتحمل أثقالك، وأثقالا مع أثقالك..

ولا يغرنك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك.. ويأكلون الطيبات من دنياهم بإذهاب طيباتك فى آخرتك.. ولا تنظر إلى قدرتك اليوم.. ولكن انظر إلى قدرتك غدا.. وأنت مأسور فى حبال

الموت.. وموثوق بين يدى الله.. فى مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين.. وقد عنت الوجوه للحى القيوم..

إنى يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغ بعظتى للحى القيوم.. إنى يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغ بعظتى ما بلغه أولوا النهى من قبلى.. فلم آلك شفقة ونصحا.. فانزل كتابى إليك كمداوى حبيبه.. يسقيه الأدوية الكريهة، لما يرجوا له فى ذلك من العافية والصحة.. والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته»..

هذه النصائح الغالية.. العميقة.. التى لا يصل إلى مستواها أى قانون وضعى.. أو حتى مثاليات نادى بها الفلاسفة فى كل العصور.. ولو نادوا بها لعجزوا عن تطبيقها.

إنسان قد استطاع أن يطبقها عمر بن عبد العزيز.. ليس بحذافيرها فقط.. بل غالى وقسى على نفسه وعلى أهله كثيرا.. فعاش على الكفاف.. حتى وجدنا زوجته فاطمة بنت عبد الملك.. وقد كانت تعيش حياة منعمة مع زوجها قبيل الخلافة.. قالت عندما ذكرت خلافة زوجها.. وما عاشته فى ظل تقشف كبير..

ـ «يا ليت كان بيننا وبين الخلافة بعد المشرقين.. فوالله ما رأينا سرورا منذ دخلنا فيها».

* * *

ولزوجته العظيمة فاطمة التى وقفت معه وقفة رائعة شجاعة.. فتعيش حياة عمر.. وهى زوجة الخليفة ووالدها عبد الملك خليفة.. وأخواها الوليد وسليمان خلفاء..

ومع ذلك فقد آثرت أن تعيش بجانب زوجها العظيم.. الذى وهب نفسه لله وللناس.. ولم يعد أمامه متسع من الوقت للحياة العائلية.. والهناء العائلى.. وكانت هى كما يقول الرواة من أجمل نساء عصرها.. أنها تتحمل كل هذه الأعباء فى صبر وترى زوجها الذى كانوا يأتون له بأجمل الثياب وألينها.. فإذا به يأتون له بأخشن الثياب فتعجبه وإن كان يرى فى هذه الملابس أنها ناعمة.

لقد طبع عمر بطابع جديد.. ومن هنا كان من الصعب أن يرضى بشفاعة أحد.. مهما كان قريبا منه فيما يرى أنه يتعارض مع العدل.. ونزاهة الحكم.. وقد رفض شفاعة عمته فاطمة بنت عبد الملك.. وكانت قريبة إلى نفسه .. بأن يرد أموال بنى أمية الذى كان يسميها (أموال المظالم) إلى أهله..

قالت له: إن قرابتك يشكونك.. ويزعمون أنك أخذت منهم خير غيرك.

قال: ما منعتهم حقا أو شيئا كان لهم..

قالت: أنى رأيتهم يتكلمون، وإنى أخاف أن يهيجوا عليك يوما عصيبا..

قال: كل يوم أخافه دون يوم القيامة فلا وقانى الله شره..

وقال عمر أيضا:

- «والله لو أقمت فيكم خمسين عاما ما أقمت فيكم إلا ما أريد من العدل.. وأنى لا أريد فيما أنفذه إلا مع طمع من الدنيا حتى تسكن قلوبهم»..

لم يكن عصر عمر عصر فتوحات.. فقد آثر الرجل العظيم أن ينشر العدل بين الناس.. وأن يسوسهم بالرحمة.. وأن يكون منهاجه فى ذلك كتاب الله وسنة رسوله.. وأن يتمتع الناس بما فى الإسلام من عدالة ورحمة ومساواة.. وأن يوقف زحف الأفكار المتطرفة.. وأن يعيد الناس إلى الدين السليم.. فى بساطته.. وفطرته.

ولم يجد أعداء الأمويين دافعا يدفعهم إلى التمرد على عمر.. فليس فى شخصيته شىء يأخذونه عليه.. إنه المثال الرائع.. والتجسيد الحى للعدل.. فقرر الخوارج أن يهادنوا السلطة الحاكمة فى عهده.. لما رأوا فيه من ورع وتقوى وزهد..

ولكن الرجل آثر أن يقنعهم بالحجة.. بالمنطق.. بكتاب الله وسنة رسوله.. وكان له معهم حوار رائع.. وكان له من قوة المنطق والحجة ما جعلهم عاجزين عن مناقشة عمر.. فلاذوا بالصمت.. واقتنعوا بعدم جدوى العنف معه.. فقد آثر عمر العظيم.. وفهم بفطنته الفذة أنه لا جدوى من اتخاذ العنف مع

هؤلاء الناس طالما هم يؤمنون إيمانا عميقا بما يعتقدونه من أفكار خاطئة بعيدة عن الدين.. فطالما حاربوا الإمام على رضى الله عنه.. وقد حاربهم الإمام عندما وجد أنه لا مفر أمامه من قتالهم.. وحاول أكثر من مرة ـ رضى الله عنه ـ أن يقنعهم بالحجة بأنهم على خطأ..

لقد أرسل عمر إلى أحد قادتهم (شوذب الخارجى) يقول له:

ـ «بلغنى أنك خرجت غضبا لله ولرسوله.. ولست أولى بذلك منى.. فهلم إلى أناظرك.. فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس.. وإن كان فى يدك نظرنا فى أمرنا».

فرد الرجل:

ـ قد انصفت.. وقد بعثت إليك رجلان يدارسانك ويناظرانك.

وناظر عمر العظيم الرجلين.. بسماحة صدر.. وعمق فى النظرة وفهم عميق فى الدين..

طلبوا منه مثلا أن يلعن أهله.. لأنه أدانهم.. وسمى ما أخذه منهم ورده إلى بيت المال مظالم.. فقال لهم عمر:

ـ «أنى قد علمت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب الدنيا ومتاعها.. ولكنكم أردتم الخير والآخرة فأخطأتم سبيلها.. إن الله عز وجل لم يبعث رسوله ﷺ لعانا.. وقال الله عز وجل على لسان إبراهيم:

﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [إبراهيم: ٣٦].

وقال الله عز وجل:

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وقد سميت أعمالهم ظلما.. وكفى بذلك ذما ونقصا.. وليس لمن أهل الذنوب فريضة لابد منها.. فإن قلتم أنها فريضة أخبرنى متى لعنت فرعون؟.

وقال الخارجى: ما اذكر متى لعنته..

قال عمر: أفيسعك أن لا تلعن فرعون وهو أخبث الخلق وشرهم.. ولا يسعنى أن لا ألعن أهل بيتى وهم مصلون صائمون..

سأله الخارجى: أما هم كفار بعملهم؟ وظلمهم؟

قال عمر: لا.. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى الإيمان فكان من أقرَّ به وشرائعه قبله منه، فإن أحدث حدثا أقام عليه الحد..

ومضى فى نقاش عميق.. ورائع معهم.. فلم يكن منهم إلا أن ران عليهم الصمت.. أمام بلاغة أمير المؤمنين.. وقوة منطقه..

ونمضى مع أيام عمر فى خلافته العظيمة فنرى عجبا.. نرى أن عددا هائلا من أهل الذمة.. قد دخلوا الإسلام.. رأوا فى الخليفة تجسيدا حيا للإسلام على حقيقته.. فلم يسعهم.. إلا أن

دخلوا فى دين الله. . وكانوا من قبل يعيشون تحت ظلال الدولة الإسلامية. . يدفعون الجزية. . ولكنهم ما زالوا على دينهم. . ولكثرة من دخل الإسلام من أهل الكتاب. . خشى أحد الولاة أن يتأثر دخل الدولة من ذلك. . بعد أن رفعت الجزية عن عدد هائل من الرعية. . فاقترح أن تبقى الجزية على من أسلم من أهل الذمة ولا ترفع. . فأرسل إليه عمر:

- «قبح الله رأيك. . أرفع الجزية عمن أسلم. . فإن الله بعث محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا. . ولعمرى لعمر أشقى من أن يسلم الناس جميعا على يديه.

لقد دخل الناس فى مصر وسوريا وبلاد الفرس فى الإسلام. . كما أسلم ملوك السند. . وهم يرون فى سيرة عمر ما جعلهم يدرسون الإسلام الذى صنع بمبادئه مثل عمر. . وتبعتهم شعوبهم. .

* * *

ولم يكتف عمر برفع الجزية عن الذين دخلوا الإسلام بل أمر أن تخفف الجزية أيضا عن أهل الذمة. . وأن يحل مشكلة من المشاكل التى تكونت خلال الحكم الأموى. . وهو تفضيلهم العنصر العربى على العنصر الفارسى. . رغم أن الإسلام لا يفرق بين مسلم ومسلم بسبب اللون أو الجنس. . فالناس فى ظل الإسلام سواسية. . لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى كما

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وما كان الأمويون يفضلون العرب عن الفرس إلا إحياء للنزعات القبلية البعيدة عن الإسلام..

وجاء عمر بن عبد العزيز.. فرفع هذا الظلم عن كاهل الموالى.. وسواهم بالعرب فى كل شىء مما جعلهم يشعرون فى عصره بالراحة والأمن والأمان.

وعمر العظيم.. الذى فهم الإسلام على حقيقته.. الإسلام بفطرته وجلائه.. وعذوبة مبادئه.. وسهولة تعاليمه.. لم يشأ أن يعالج أى من الأمور الفكرية إلا بالفكر.. بالإقناع والمنطق.. ولذلك فقد آثر أن يحل مشاكل الخوارج بأفكارهم المتطرفة البعيدة عن سماحة الإسلام.. بالحجة.. بالبرهان..

فإن ثابوا للحقيقة فهم وشأنهم.. وإن ركبوا رءوسهم.. وأبو الانصياع للحق.. فليفعلوا.. وليفكروا كما يشاءون.. بشرط ألا يعتدوا على أحد من الرعية.. إنه يتركهم يتخذون ما يشاءون من الأفكار.. الشرط الوحيد هو ألا تتحول هذه الأفكار إلى إرهاب أحد..

ومن هنا نرى الإنسان المستنير الذى يتخذ من الفكر الرفيع.. والفهم المستنير للإسلام مرشداً له ودليلا.. نرى مثلا أن حاكم الموصل يطلب منه السماح له بالقضاء على فرقة من الخوارج فى الموصل.. فيرسل إليه عمر هذه التعليمات.

- «إذا رأوا أن يسيحوا فى البلاد من غير أذى لأهل الذمة وفى غير أذى للأمة.. فليذهبوا حيث شاءوا.. وإن نالوا أحدا من المسلمين أو من أهل الذمة فحاكمهم إلى الله».

وبهذه السياسة الرائعة التى ترتفع إلى أعلى ذرى الديمقراطية عاش هؤلاء الخوارج فى عهده لا يستطيعون أن يرفعوا سيفا فى وجه أحد.. ولا أراقوا دما.

وكيف لا يدخل الناس فى البلاد المفتوحة الإسلام، وهم يرون فى سلوك الخليفة ما يشبه المعجزات.. فالرجل لم يكن معجزة إلا أنه طبق مبادئ الإسلام على نفسه قبل أن يطبقها على رعيته.. بل أنه فى الوقت الذى شعر الناس فى عهده بالرخاء.. وزاد من أعطيات الناس، كان هو نفسه يعيش حياة متقشفة لا يعيشها أحد من رعيته..

ومن مآثره العظيمة إبطاله لعن على بن أبى طالب على المنابر.. وهى عادة سخيفة.. تداولها خطباء المساجد عندما تولى معاوية بن أبى سفيان الحكم.. فقد طلب من ولاته لعن على على المنابر.. وأراد هو نفسه أن يلعن على بن أبى طالب على منبر رسول الله.. ولكن الناس نصحوه أن سعد بن أبى وقاص الصحابى الجليل سوف يحضر الصلاة، وأنه لن يرضى على هذا التصرف.. وأن عليه أن يستشيره قبل أن يقدم على هذا..

وبالفعل أرسل معاوية إلى سعد يستشيره فيما عزم على أن يقوم به، فما كان من سعد بن أبى وقاص إلا أن نهره عن ذلك وقال له لو فعلت ذلك لأخرجن من المسجد ثم لا أعود إليه..

وأحجم معاوية ساعتها عن ذلك.. ولكنه أمر كل ولاته بلعن على.. واستنكرت ذلك أم المؤمنين أم سلمة، وأرسلت إلى معاوية تقول له:

ـ «انكم تلعنون الله ورسوله على منابركم، ذلك أنكم تلعنون على بن أبى طالب ومن أحبه.. وأنا أشهد أن الله أحبه ورسوله»..

ولكن معاوية لم يأبه بهذه الرسالة.. وظلت هذه عادة من عادات الأمويين.. فكلما اعتلى أحدهم الحكم.. تقرب إليهم الذين فى قلوبهم مرض بلعن على.

وقد مر علينا أن عمر بن عبد العزيز فى صباه.. قال قولا لا يليق بالإمام على فنهره عبيد الله بن عبد الله وقال له:

ـ «متى بلغك أن الله سخط على أهل بدر بعد أن رضى عنهم»..

وقال عمر له: معذرة إلى الله ثم إليك.. والله لا أعود..

ومضت الأيام.. وإذا بعمر يفهم الناس وأوزانهم.. ويعرف قيمة الإمام.. وسابقته وجهاده، وقرابته من رسول الله صلى الله

عليه وسلم.. حتى أنه قال ذات يوم لمن حوله، وقد كان الحديث عن الزهاد:

- «أزهد الناس فى الدنيا على بن أبى طالب»..

وما كان يذكر ابن أبى طالب إلا بخير.. ويروى عنه الرواة قوله:

- «كنا نحن وبنو عمنا بنو هاشم مرة لنا ومرة علينا.. نلجأ إليهم ويلجأون إلينا، حتى طلعت شمس الرسالة فأكدت كل نافق.. وأخرست كل منافق.. وأسكتت كل ناطق»..

لذلك لم يكن غريبا على عمر، أن يبطل سب على على المنابر.. وأمر الخطباء أن يستبدلوا بالكلمات التى كانوا يلعنون بها ابن عم رسول الله بقولهم:

- «إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون»..

وفى قول آخر.. أنه أمرهم بأن يقولوا:

- ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠].

وهناك من المؤرخين من يقول.. أنه أمر بهذين الدعاءين.. ويتضح من ذلك نقاء سريرة أمير المؤمنين.. وحرصه على أن تختفى الألفاظ البذيئة، والأحقاد من فوق المنابر.. فالمنبر للدعوة المستنيرة.. لتذكير الناس بالحسنى.. لبث الرحمة والتآلف بين

القلوب.. لا يجب أن تتخذ وسيلة للعن رجل من بيت النبوة.. كان قريبا إلى صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وكان زوج ابنته الزهراء.. لقد أصبح عمر بن عبد العزيز بهذا الموقف النبيل مثالا للحاكم الورع الذى يرفض أن يزج بأهواء السياسة فى أمور الدين..

هذا الموقف النبيل الذى وقفه ابن عبدالعزيز من آل بيت الرسول.. جعل رجلاً كالشريف الرضى يرثيه بأحر الكلمات عندما انتقل إلى رحاب الله بقوله:

يا ابن عبد العزيز لو بكت العين

فتى من أمية لبكيتك

أنت انقذتنا من السب والشتم

فلو أمكن الجزاء جزيتك

وإن ما قدمه عمر للإسلام والمسلمين لشىء يفوق الوصف.. وفى أيامه بلغت الإصلاحات ذروتها.. من تعبيد الطرق.. إلى حفر الآبار.. إلى استصلاح الأراضى.. إلى بناء المساجد.. استخدم البريد للجميع.. وفى ظل هذه العدالة المطلقة.. وفيظل الإصلاحات التى قام بها.. أصبح المجتمع معطرا بصفاء الروح.. وازدهرت الحياة الاجتماعية، وارتفع مستوى المعيشة لكل الطبقات، حتى قال الرواة أنه لم يجد محتاجا للزكاة!

أو كما يروى ابن عبد الحكم أن الرجل فى عهده يأتى بزكاة ماله يبحث عن مستحق لها، فما يبرح حتى يرجع بماله.. فقد أغنى عمر الناس..

بل إن خزائن الدولة امتلأت بالأموال، حتى أن عمر أمر ولاته أن يحرروا بهذه الأموال الرقاب..

هكذا يفعل العدل بالمجتمعات..

ولنقف عند مثال واحد فقط لنرى أى رجل كان هذا الخليفة عمر..

أهدى إليه رجل من أهل بيته تفاحا، فاشتمه ثم رده مع الرسول وقال له: قل له لقد بلغت محلها..

فقال له الرجل: يا أمير المؤمنين، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية.. وهذا الرجل من أهل بيتك..

فقال عمر: إن الهدية كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم هدية، أما لنا فهى رشوة..

* * *

لله درك يا عمر.. ما أروعك..

إن الهدية للحاكم رشوة.. حقيقة.. أو بديهية لم تغب عن بال أمير المؤمنين.. ومن هنا فقد رفع مرتبات حكام الولايات الإسلامية، حتى لا يتسلل إليهم.. أو تطمع نفوسهم فى المال

العام.. فكان يعطى للعامل منهم فى الشهر مائة دينار.. أو مائتى دينار ولذلك لم يكن غريبا أن تروى تلك الصور المشرفة التى تحكى عن فترة حكمه القصيرة فإذا الناس فى عهده إخوانا.. لا تباغض.. ولا حقد.. ولا كراهية ولا.. جماعات سرية.. ولا شىء من ذلك.. حتى أن عمر نفسه خرج ذات يوم يريد أن يعرف أحوال المسلمين.. وكان معه وزيره مزاحم.

رأى قافلة من المدينة.. ولم يعرفوا أنه أمير المؤمنين.. فسألهم عن أحوال الناس.. وعن معيشتهم.. ومشاكلهم.. فقال رئيس القافلة:

ـ «إنى تركت المدينة والظالم بها مقهور، والمظلوم بها منصور والغنى موقور، والعائل مجبور».

فقال عمر: «لأن تكون البلدان كلها على هذه الصلة أحب إلى مما طلعت عليه الشمس»..

وعمر بن عبد العزيز.. صاحب الحس المرهف.. والضمير اليقظ.. والوجدان المليئ بنور الإيمان.. كان يتجه بكل كيانه إلى الله دائما أن يوفقه إلى الطريق المستقيم.. وكان كثيرا ما يدعو الله جل علاه:

ـ «اللهم إن رجالا أضاعوك فيما أمرتهم، وانتهوا عما نهيتهم.. اللهم وإن توفيقك إياهم كان قبل طاعتهم إياك.. فوفقنى»..

ومع كل هذا الورع والتقوى سأله رجل ذات يوم:

ـ كيف أصبحت يا أمير المؤمنين؟

قال عمر:

ـ أصبحت بطيئا بطينا.. متلوثا بالخطايا.. انحنى على الله عز وجل..

لذلك حق للناس أن يعيشوا فى عصره فى أمن وأمان.. وأن يكون عصره مثالا رائعا للحكم السليم فى كل العصور.. لأننا نرى فى كل لحظة من لحظات خلافته ما يثير الإبهار والانبهار فى نفس الوقت.. مع أنه بديهية من بديهيات العدل الإسلامى.. ويبدو لنا مبهرا.. لأننا رأينا واقعا محسوسا.. لا سطور موجودة بين طيات كتب المواعظ..

يرسل إليه ذات يوم أحد ولاته.. وهو والى خراسان، حتى يسمح له أن ينتشر الأمن بين الناس عن طريق العنف.. فيرسل إليه عمر.. يوبخه.. ويوضح له أن العدل هو الذى يبسط الأمان بين ربوع الناس لا الإرهاب.. إنه يقول له:

ـ «كذبت.. بل يصلحهم العدل والحق، وابسط ذلك فيهم.. واعلم أن الله لا يصلح عمل المفسدين..».

* * *

إن عمر بن عبد العزيز بفطرته السليمة.. ووعيه القويم يرى أن الشعوب لا يصلحها الإرهاب.. أو الطغيان.. ولا يرضى للشعوب أن تخضع للحاكم تحت ضغط الخوف والضرب بالسياط.. ولكن بالحق والعدل يصلح الناس.. ويصلح المجتمع..

لأن بانتشار العدل والحق تختفى الضغائن.. وتهرب خفافيش الحقد.. ولا يبقى إلا الحق.. والحق واضح.. وطريقه واضح.. ودروبه واضحة.. وكل هذا موجود بما أمر الله به.. وما نهى عنه الرسول..

أنه لم يزعم أنه جاء بجديد.. وأنه أنزل دستورا من عنده.. ولكن يطبق فقط ما أمر به الله والرسول.. وهذا ما رأيناه عندما خطب الناس فى أول عهده بالخلافة:

ـ «أما بعد.. فإنه ليس بعد نبيكم صلى الله عليه وسلم نبى.. ولا بعد الكتاب الذى أنزل عليه كتاب.. إلا ما أحل الله عز وجل فهو حلال إلى يوم القيامة.. وما حرم الله عز وجل فهو حرام إلى يوم القيامة.. أنا لست بقاض ولكنى منفذ.. ولست بمبتدع.. ولكننى متبع.. ألا إنه ليس لأحد أن يطاع فى معصية الله عز وجل.. ألا أننى لست بخيركم ولكنى رجل منكم.. غير أن الله جعلنى أثقلكم حملا»..

والحديث عن شخصية عمر حديث لا يمل الإنسان منه.. فهو إنسان تاقت نفسه إلى ما عند الله بعد أن وصل إلى أعلى منصب فى امبراطورية مترامية الأطراف.. لا تدانيها امبراطورية فى عصره.. فإذا به وهو الإنسان الذى عاش فى رغد العيش، وأبهة الجاه يعزف عن كل شىء.. يعتقد أنه يبعده عما يريده فى آخرته..

ففى أول أيام الخلافة يخبر زوجته أن تعيش معه على الكفاف.. وأن ترد أموالها إلى بيت مال المسلمين، أو أن تذهب إلى أهلها.. فتختار أن تعيش مع هذا الإنسان النقى السريرة.. العارف لحدود الله.. تعيش حياة لا يمكن أن تعيشها أميرة عاشت فى قصور الخلافة.. فأبوها عبد الملك بن مروان كان خليفة.. وسليمان بن عبد الملك أخوها كان خليفة.. وعندما تزوجت عمر، وآلت إليه الخلافة.. عاشت حياة أقل من الحياة التى تحياها واحدة من الرعايا.

وكثيرا ما كانت تحن إلى تلك الأيام السعيدة التى عاشتها قبل أن يعتلى زوجها الخلافة.. وخاصة تلك الأيام التى قضتها عقب زواجها فى (دابق)..

ولكن ما مضى قد مضى.. وما مضى لن يرجع.. فزوجها تغير تماما.. وأدار إلى الدنيا ظهره.. وتاقت روحه إلى ما عند الله..

لقد داعبها الخليفة يوما عندما انشغل بأمور المسلمين قائلا:

ـ يا فاطمة لنحنُ ليالى دابق أنعم منا اليوم..

وردت فاطمة:

ـ لعمرى لأنت اليوم أقدر منك يومئذ..

ولكن عمر يذكرها أنه يحمل تبعات المسلمين.. وأنه غير عمر الذى كان يعيش بالأمس مسئولا عن نفسه.. فيقول لها:

ـ يا فاطمة إنى أخاف النار.. يا فاطمة إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم..

فبكت فاطمة، وقالت: اللهم أعذه من النار.

ومع الأيام.. تعودت فاطمة الحياة مع زوجها.. واقتنعت بسلوكه وتصرفاته.. وأصابتها (نفحة) من نفحاته الروحية.. بدليل أنها رفضت عندما تولى الخلافة بعده أخوها يزيد بن عبد الملك أن تعود إليها أموالها وحليها.. وقالت لأخيها:

ـ ما كنت لأتركه ثم آخذه..

وتقول عنه زوجته معبرة عن انشغاله كليا طوال مدة خلافته:

ـ «ما اغتسل من جنابة منذ ولى حتى لقى الله غير ثلاث مرات».

بل أعجب من ذلك أنه كان لفاطمة جارية بالغة الجمال.. وكان عمر قبل الخلافة يتوق إليها ويتمنى من زوجته أن تهبها له.. ولكن زوجته أبت ذلك..

وتولى عمر الخلافة ورأت زوجته انصرافه عن النساء تماما. . وكأنها أرادت أن تجعله ينجذب إلى الدنيا التى أعرض عنها. . فألبست جاريتها أجمل الثياب وجملتها. . وكانت الجارية تعرف أن عمر كان يكن نحوها عاطفة قوية. . وكان أيضا عفيفا. . فإذا بعمر يعرض عنها وعما عرضته عليه زوجته. . وما دامت زوجته قد وهبتها له. . فمن حقه أن يتصرف فيها كما يشاء. . فأخذ عمر يسأل الجارية عن أهلها. . وأمر بأن ترد إليهم. .

ويقول الرواة أن الجارية سألت عمر:

- فأين موجدتك يا أمير المؤمنين؟

قال عمر:

- إنها لعلى حالها. . ولقد ازدادت. .

وبلغت حياة التقشف فى أسرة عمر ما لا يصدقه عقل. . فهو لا يلبس إلا ثوبا واحدا. . وعليه إذا أراد أن يغيره أن ينتظر حتى يجف بعد غسله. . وهو الذى كان يلبس الثياب الحريرية الناعمة. . وبيته بلا أثاث تقريبا سوى بعض الحصير ولا يعيش فى قصر. . بل فى بيت عادى.

حتى أن امرأة من العراق جاءت فى أمر تريده من أمير المؤمنين. . ودخلت منزله. . بلا حراس. . ولا حجاب. . واستقبلتها زوجة عمر ولكن المرأة أخذت تنظر يمينا وشمالا. .

فالبيت ليس بيت الخليفة.. وليس فيه من الأثاث ما يثير الانتباه.. وقالت لفاطمة بحسرة:

ـ إنما جئت لأعمر بيتى من هذا البيت الخرب..

ولم تطق زوجة الخليفة ما قالته المرأة فقالت لها:

ـ إنما خرب هذا البيت عمارة بيوت أمثالك..

وأدارت المرأة نظرها، فإذا بعمر بن عبد العزيز يحمل دلوا من بئر البيت ليصبه على الطين وهو ينظر إلى زوجته.. ولم تعرف المرأة أن هذا الرجل هو أمير المؤمنين فقالت لزوجة الخليفة:

ـ استترى من هذا الطيان فإنى أراه يطيل النظر إليك..

وردت فاطمة بنت عبد الملك:

ـ ليس بطيان.. هو أمير المؤمنين..

وقصت فاطمة حاجة المرأة العراقية إلى زوجها فأمر لها بمعونة..

أى إنسان هذا الذى كانه عمر..

ابن له صغير يتناول تفاحة هى من الفئ.. ويراه والده فينزع التفاحة منه.. وتعلم بذلك أمه.. فتخرج وتشترى لابنها تفاحا.. ويشاهد عمر هذا المشهد بقلب الوالد.. الحنون.. ويقول لزوجته:

ـ «والله لقد انتزعتها من ابنى وكأنما انتزعها من قلبى إن نفسى كرهت أن أضيع نفسى من الله عز وجل بتفاحة من فئ المسلمين» . .

بل تتجاوز رحمته . . ورقة قلبه كل الحدود، ونحن نرى كيف كان يعامل أبناء الرعية . . فقد كان له طفل يلعب مع الأطفال . . وتشاجر مع طفل . . فضرب الطفل ابن عمر وأشجه . . وخرج عمر على الضوضاء . . وسأل عن الطفل الذى ضرب ابنه . . وعلم أنه يتيم . . فأمر له بعطاء . . وقال لزوجته :

ـ أنكم أفزعتموه . .

وكان الدعاء الأثير عنده، وهو يتوجه إلى الله بكل كيانه :

ـ «يا رب خلقتنى وأمرتنى ونهيتنى . . ورغبتنى فى ثواب ما أمرتنى به . . ورهبتنى فى عقاب ما نهيتنى عنه . . وسلطت على عدوا فأسكنته صدرى . . وأسكنته مجرى دمى . . إن أهم بفاحشة شجعنى . . وإن أهم بطاعة ثبطنى . . لا يغفل إن غفلت . . ولا ينسى إن نسيت، ينصب لى الشهوات . . ويتعرض لى فى الشبهات . . وإلا تصرف عنى كيده يستزلنى . .

اللهم فاقهر سلطانه على بسلطانك عليه . . حتى تخسئه بكثرة ذكرى لك . . فالفوز مع المعدومين بك . . ولا حول ولا قوة إلا بالله» . .

وموقفه من كنيسة (يوحنا) بدمشق يثير العجب.. فقد كانت هذه الكنيسة جانب مسجد دمشق.. وأراد الوليد بن عبد الملك أن يقوم بتوسيع هذا المسجد.. فأخذ جزءاً من الكنيسة وضمه إلى المسجد.. وتولى عمر الخلافة.. وسمع القسس بعدل عمر.. فطالبوه برد الجزء المأخوذ من الكنيسة.. ووافق عمر..

وافق أن يهدم جزءاً من المسجد ليعود إلى الكنيسة.. وتعجب الناس من قرار عمر.. وتفاوض جماعة من المسلمين مع نصارى دمشق لإيجاد حل حتى لا يهدم جزء من المسجد.. وقابلوا زعماء النصارى واتفقوا على أن يدفعوا التعويض اللازم وقبل القسس هذا الاقتراح.. وذهب وفد منهم إلى الخليفة يحدثونه عن الاتفاق وعن تنازلهم من أجل ذلك الجزء الذى اقتطع من الكنيسة..

.. و.. يسعد عمر بهذا الحل الذى أرضى النصارى سواء بسواء.. فالإسلام قد أقر قانونه فى الدعوى له.. وهى الدعوى للإسلام بالعقل.. ولا إكراه فى الدين..

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

.. إنسان بهذا العدل.. وهذه التقوى.. وهذه القوة أيضا.. لأنه لم يخف فى قراراته من شىء.. ولا اهتز من إنسان، ولكن كانت كل تصرفاته نابعة من إيمانه العميق بالعدل.. والعدل عنده هو أساس الحكم.. وحكم بلا عدل.. حكم بلا

أساس.. لا بد أن يتصدع ويتهاوى.. ولم يكن ذلك غريبا على شخصية ابن عبد العزيز.. فالرجل الذى عرف كل ما فى الحياة من ترف.. ثم أعرض عن كل هذا بعد أن تاقت نفسه إلى ما عند الله..

ما كان يخشى فى الحق لومة لائم.. وإنما كان قلبه اليقظ يرق للضعيف والمسكين والمقهور والمظلوم.. وما كان يرى فى الحياة إلا أنها أشبه بالإنسان الذى يستظل بظل شجرة ثم سرعان ما يتركها على حد تعبير المصطفى عليه الصلاة والسلام..

يحتار أى باحث أو مؤرخ أو دارس لسيرة عمر بن عبد العزيز عن سر قوة هذه الشخصية الآسرة.. لم يكن قاسيا على الحكام البغاة، بل كان شديد القسوة على نفسه.. يحاسب نفسه أمر الحساب على هفوات..

وأنه لترتسم عشرات من علامات الاستفهام الحائرة والمحيرة، ونحن نرى هذا الإنسان الذى كان شديد الترف، يتحول فجأة ليعيش على أقل من الكفاف ويختزل دخله الذى كان يبلغ أربعين ألف دينار من ممتلكاته الخاصة إلى مائتين دينار فى السنة!

وكل هذه الأموال ردها إلى بيت مال المسلمين وهذا الذى كان يرفل فى النعيم، أصبح يحبس نفسه حتى يجف ثوبه، لأنه لا يملك إلا ثوباً واحداً.. وهو خليفة أعظم امبراطورية فى عصره كل ما يمتلك من ملابس: قميص ورداء وإزار. فإذا كان الخليفة

على هذا المنوال من التقشف، فلابد أن يكون قدوة لكل حكام ولاياته.. إذ كيف يمكن أن يعيش الخليفة بكل هذا التواضع والخشونة وفى بيت من الطوب اللبن، ويعيش حكامه فى القصور واقتناء الضياع..!

لقد استطاع عمر أن يعزل الطغاة من ولاته، واستطاع عمر أن ينشر العدل بين الجميع، واستطاع عمر أن يجعل الخوارج فى عهده يلوذون بالصمت لما رأوا فيه من قدوة تستعصى حتى على الخيال.

واستطاع عمر بن عبد العزيز أن ينشر التسامح فلا إكراه فى الدين.. ولا إرغام لذمى على ترك دينه. ولا يسمح لأحد أن يتعرض لمعتقداتهم ولا لممتلكاتهم، بل كان شديد الحرص على أن يشعر أهل الذمة بأنهم فى أمن وأمان مع إخوانهم من المسلمين..

وهو يرسل للناس فى كل الولايات الخاضعة له أن يراقبوا عماله، وأن يرسلوا إليه عن طريق البريد - إن تعذر عليهم الوصول إليه فى دمشق - عن أى مظلمة أو ظلم يحيق بأحد من الناس.. وكان يقول للناس:

«أى عامل من عمالى رغب عن الحق ولم يعمل بالكتاب والسنة فلا طاعة له عليكم، وقد صيرت أمره إليكم حتى يراجع الحق وهو ذميم».

لقد عرف الناس فى عهده العدل.

وعرفوا فيه الخوف من الله ولا يخاف من أحد سواه.. لم يكن حاكما يرجع فى أمور الحكم إلى رؤياه الشخصية بل هو يحيط نفسه بمن يخافون الله من العلماء ويستشيرهم فيما يجرى من أحداث!

وعندما كثر الخير فى عهده، ولم يجد مسكينا يحتاج إلى صدقة، ولا غارما ليسدد ديونه، أمر أن تعتق رقاب العبيد، وأن يعالج المرضى على حساب الدولة، وأن تساعد الدولة المقبلون على الزواج..

لقد حرص على أن يوفر للمواطن.. المسكن، والملبس، والدابة التى يركبها.. وكل ما يعينه على الحياة الكريمة..

أى مجتمع هذا الذى لا تجد فيه سائل ولا محتاج، فإن وجد السائل أو المحتاج أو الغارم.. فإن على الدولة أن تحل كل مشاكله!

بل إن عمر - وقد بارك الله عصره - وما كثر فيه من أموال تزيد عن حاجة المواطنين، أمر بإقامة المطاعم التى يأكل بها كل محتاج وكل عابر سبيل..

مجتمع مثالى.. معطر بروح الإسلام.. وقيمه.. ومبادئه.. لا مكان فيه لمتسول أو جائع.. أو محروم.

وكان شعاره رضى الله عنه:

«أى عامل لى ظلم أحدا، وبلغتنى مظلمته ولم أغيرها فأنا الظالم».

ولم يكتف عمر بما تأتيه الرسائل من الحكام أو من الناس عما يجرى فى دولته، بل كان يتقص الأمر بنفسه.

وذات يوم أدى فريضة الحج.. وفى طريق العودة إلى عاصمة ملكه، كان يودعه عامله على مكة، وكبار رجالاتها.. واعترضه شخص وطلب منه أن يعينه على عامله الذى ظلمه، فقد أراد أن يأخذ بعض ممتلكاته بستة آلاف درهم، وعندما رفض ذلك حبسه وفرض عليه أن يبيعها بنصف هذا الثمن!

ونظر عمر إلى عامله بنظرات حادة ورد عليه ماله، وأعطاه حقه كاملا..

وما يقال عن عدل عمر وزهده ورعايته للناس وخاصة الضعفاء والمساكين، والذين يحتاجون العون.. مئات الأمثلة.

فكم من عامل له أقصاه عن الحكم عندما سمع عن ظلمه، أو عدم تطبيقه شرع الله.

وكم من عامل أقصاه عندما أيقن أنه لم يكن على مستوى المسئولية.

وكم من عامل أنهى خدمته لأنه تصور أن الإسلام جباية وليس عدلا، فقد حاول بعضهم أن تظل الجزية مقامة على أهل الذمة ظنا منهم أنهم دخلوا الإسلام هروبا منها، فرفض عمر هذا التعليل السقيم.

إن عمر يعى تماما كلمات الزاهد الحسن البصرى، عندما أرسل إليه ما ينبغى أن يكون عليه الحاكم العادل. . ومن أقواله:

«اعلم يا أمير المؤمنين، أن الله جعل الإمام العادل، قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونَصفَةَ كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف. .

والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله. . الرفيق بها، الذى يرتاد لها أطيب المراعى. . ويذودها عن مراعى التهلكة، ويحميها من السباع، ويكنها من أذى الحر والقر.

والأمير العادل يا أمير المؤمنين كالأب الحانى على ولده، يسعى لهم صغارا، ويعلمهم كبارا، يكتسب لهم فى حياته، ويدخر لهم بعد مماته.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين وصىُّ اليتامى، وخازن المساكين، يربى صغيرهم ويمون كبيرهم.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوارح، تصلح الجوارح بصلاحه وتفسد بفساده، والإمام العادل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وعباده، يسمع كلام الله ويسمعهم، وينظر إلى الله ويريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم.

فلا تكن يا أمير المؤمنين، فيما ملكك الله عز وجل كعبد ائتمنه سيده، واستحفظه على ماله، فبدد ماله، وشرد العيال، فأفقر أهله وفرق ماله. . . .».

إلى آخر هذه النصيحة الغالية الذى ينصحه فيها هذا الزاهد الكبير، عن أهمية إقامة حدود الله بما جاء فى شرع الله، وخوف يوم القيامة، والعمل بكتاب الله وسنة رسوله الكريم.

* * *

ولعل من أروع مواقف عمر بن عبد العزيز موقفه من الشعراء.

إنه لا يكره الشعر بل إنه يحب الشعر النقى الجميل العفيف.

وهو لا يكره الشعراء، ولكن يكره الذين يقولون ما لا يفعلون.

على العكس إنه يحب الكلمة الجميلة الآسرة. ويحب الشعر الجيد.. بل إنه قد حفظ الكثير من عيون الشعر العربى فيعصره، وما قبل عصره، وهذا ما عابه على الشعراء وأقوالهم عندما أرادوا مقابلته لأخذ العطايا والهبات كما تعودوا من قبل عندما كانوا يطرقون أبواب الخلفاء، ويقولون شعرا منمقما جميلا.. ولكنه شعر بعيد عن الواقع.. لا يصور الحقيقة، بل يصور الخلفاء فى صور بعيدة عن حقيقتهم.. طمعا فيما يملكون، ولو كان ذلك على حساب الحقيقة.

كره عمر منهم ذلك..

كما أنه ليس مستعدا أن يعطيهم من أموال الناس، وهناك من هو أحق بها منهم..

ومن هنا نقدر رفض مقابلتهم عندما تولى أمر الخلافة، ووقفوا عند بابه طلبا للدخول عليه ومدحه.

وقد مر عليهم رجاء بن حيوه وهو فى طريقه إلى أمير المؤمنين، ولما رآه جرير قال له:

يا أيها الرجل المرخى عمامته

هذا زمانك قد مضى زمنى

ولكن رجاء لم يذكر شيئاً عن هؤلاء الشعراء لأمير المؤمنين.

وعندما دخل عدى بن أرطأه، طلب منه جرير أن يبلغ عمر ابن عبد العزيز بوجود الشعراء، وقال مما قاله شعرا قوله:

لا تنسى حاجتنا لقيت مغفرة

قد طال مكثى عن أهلى وعن وطنى

وقال أرطأه لعمر:

يا أمير المؤمنين الشعراء ببابك، وسهامهم مسمومة وأقوالهم نافذة!

قال عمر:

ويحك يا عدى ما لى والشعراء.

قال عدى:

ـ أعزك الله يا أمير المؤمنين إن رسول الله ﷺ قد امتدح وأعطى لك فى رسول الله ﷺ أسوة.

قال عمر:

ـ كيف؟

قال عدى:

ـ امتدحه العباس بن مرداس السلمى فأعطاه حلة قطع بها لسانه.

قال عمر: أتروى من قوله.

قال نعم، وأنشده القصيدة التى مطلعها:

رأيتك يا خـير البـريـة كلهـا

نشرت كتابا جاء بالحق معلما

وسأل عمر عن الشعراء الذين يقفون ببابه، فعرف أن منهم جرير، وعمر بن أبى ربيعة، والفرزدق، والأخطل، والأحوص وغيرهم.

وعدَّد عمر بن عبد العزيز ما قالوه عن شعر مخالف للقيم والعادات والتقاليد الإسلامية، ورفض دخولهم عليه، ولم يوافق إلا على مقابلة جرير، الذى أنشده رائيته المشهورة التى جاء فيها:

الخير ما دمت حيا لا يفارقنا

بوركت يا عمر الخيرات من عمر

وأعطاه مائة درهم من ماله الخاص!

وقال جرير: والله لهى أحب مال اكتسبته فى عمرى.

وعندما سأله الشعراء عندما خرج من عند الخليفة عما رأى قال لهم:

رأيت رقى الشيطان لا تستفزه

وقد كان شيطانى من الجن راقيًا

لم يكن عمر يحب الفخر والافتخار، ولا يحب من يدق له الطبول، أو يرسل له قصائد المديح.. إنه أعلم بنفسه من الشعراء، وهو لا يعنيه من أمر الدنيا إلا رضاء قيوم السماوات والأرض.. ولا يخشى سواه.. إنه لا يخشى إلا الله.. ولا يحب إلا رضاء الله.

ومن هنا فقد أيقن هذا من حوله من الشعراء، والمنافقون، والذين لديهم الاستعداد لأن يبيعوا دينهم بدنياهم..

وزاد إعجاب الناس به عندما رد لآل البيت حقوقهم.. وقد أغاظ ذلك بنى أمية لقد رأوا فيه إنسانا صلب العود، لا يخشى فى الله شىء، وسمعوه وهو يقول لوزيره مزاحم:

ولا خير فى عيش امرئ لم يكن له

من الله فى دار القــرار نصـيب

فـإن تعجـب الدنيـا أناسـا فإنـــها

مـتـــاع قـليـل والـزوال قـريـب

عرفوا أن عمر بن عبد العزيز لا يريد إلا وجه الله. ورأوا فى هذا الشاب الذى كان جبينه يتلألأ بالفتوة والحياة، وقد أصبح شاحب الوجه.. غائر العينين، نحيف البدن.. من مخافة الله..

إن عمر ليس حاكما يجرى وراء السلطان والجاه والسلطة.. إنه لا ينظر إلى الدنيا.. ولا يأبه بما فيها من ملذات.. بل هو يعيش على ما لا يستطيعه أن يعيشه البسطاء من رعيته.

كانت فترة حكمه من أجمل الفترات وأعدلها فى تاريخ الإسلام.. فقد سرت روح العدالة والروحانية فى أرجاء المجتمع.. وآثر عمر أثناء خلافته أن تتوقف الفتوحات لإعطاء الفرصة ليعرف الناس الإسلام على حقيقته، فأرسل الدعاة إلى كل الأماكن المفتوحة لشرح هذا الدين الحنيف.. فاعتنقه الكثيرون من البلاد المفتوحة إيمانا منهم بأنه دين التوحيد الخالص، ودين الرحمة والعدل، ودين القيم والفضائل.. وأنه فى ظلال هذا الدين عندما يحكم به ومن خلال تعاليمه، من الممكن أن يعيش الإنسان فى سعادة.. لأنه يحدد العلاقة بين الإنسان وخالقه، وكيف تصل إلى الله تعالى عن طريق ما أحل من الحلال والابتعاد عما حرم من الحرام. وأن هذا الإنسان سوف يعيش على وفاق مع الآخرين. لأن الإسلام حدد العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، وكذلك العلاقة بين المجتمع الإسلامى والمجتمعات الأخرى.. اقتنع الناس بهذا الدين وبشريعته السمحة فاعتنقوه عن

قناعة ورضا وبلا إكراه.. ورأى الناس فى شخصية الخليفة تجسيدا حيا لقيم الإسلام، وتطبيقا واقعيا لتعاليمه وإذا كانت الشعوب التى دخلت فى الإسلام قد وجدت فى شخصية الخليفة القدوة والمثال إلا أن بنى أمية قد وجدوا فيه إنسانا أفقرهم وأخذ أموالهم، وسلبهم سلطانهم على الناس، فلم يعودوا قادرين على احتمال حكمه.. بعد أن عجزوا أن يثنوه عن منهجه فى الحكم.. وأن يعود إلى نفس النهج الذى كان يتبعه من سبقه من خلفاء بنى أمية.

لقد عاشوا حياة الترف والتسلط والاعتلاء على رقاب العباد، وعاملوا الشعوب الأخرى (الموالى) بغطرسة وترفع وكبرياء، رغم أن الإسلام يرى أنه لا فرق بين عربى وأعجمى إلا بالتقوى.

لقد ضاق أمراء بنى أمية بأمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز.. إنه يحاول أن يعود بهم إلى عصر أبى بكر وعمر..

وعصر أبى بكر وعمر.. هو عصر الرجال العظام الذين عاشوا فى كنف الرسالة الخالدة، وتأثروا بالرسول عليه الصلاة والسلام وشخصيته الآسرة، وقيمه ومبادئه، فكانوا رجالا كبارا، أما العصر الأموى ففيه تغيرت الأمور.. إنها ملكيه.. يختار الخليفة من يخلفه فى الحكم سواء كان ابنه أو أخوه.. أو من يختاره من أقاربه.. ليس حكما يقوم على الشورى، والأخذ برأى الناس.. فما بال ابن عبد العزيز يريد العودة إلى زمان غير

الزمان الذى ألفوه، وتعايشوا معه ولم يعدوا يستطيعون العيش إلا من خلال متطلبات العصر الذى عاشوه، والتقاليد التى أرسوها . . والحياة الناعمة التى ألفوها بلا حساب ولا عقاب ولا لوم من أحد لتصرفاتهم.

إن عبد الملك بن مروان أنذر من يعترض على أى قرار من قراراته بقطع رقبته. . ولم يجرأ أحد أن يعارضه حتى فى أبسط الأمور حتى لو كان من أقرب أقاربه. ومن قبله أخذ معاوية البيعة لابنه يزيد عنوة من الجميع. . ومن يعترض فالسيف سوف يمتد إلى رقبته. !

ويزيد بن معاوية قتل ولاته الحسين بن على ونكلوا بجسده الشريف، وطافوا برأسه شوارع وأزقة الكوفة دون حياء، ولا خجل وهم ينكلون بآل بيت رسول الله.

وولاتهم من أمثال الحجاج بن يوسف ساموا الناس الخسف، والهوان، وأشعروا الناس بأن يعيشوا حياتهم فى ذلة واستكانة، وإلا فإن السيف سيعمل حتى يقول الرجل للآخر ـ كما أعلن الحجاج ـ أنج سعد فقد هلك سعيد!

فما بال ابن عبد العزيز يجلس فى المسجد على الأرض. . ويصغى للضعفاء والفقراء، ويسلب بنى أمية أموالهم ويسميها مظالم ويردها إلى بيت المال. . وكيف يجلس وهو أمير المؤمنين

بين الناس، فيخطبهم واعظا ويبكى على المنبر، عندما يتذكر مشهدا يثير فيه الأحزان والخوف من مشاهد يوم القيامة!

فى رأى هؤلاء الناس أن عمر أفسد عليهم الحياة، وأفسد الخلافة، وأن عليهم أن يتخلصوا منه..

ونجحوا بالفعل.. بأن أغروا أحد خدامه بأن يدس له السم فى طعامه.

ومرض الخليفة مرض الموت.. وعلم أنهم دسوا له السم فى طعامه، وأنه سوف يغادر الدنيا، وكم أسعده أن فى حياته القصيرة، قد حقق أملا عزيزا عليه وعلى المؤمنين..!

استطاع أن يجسد تعاليم الإسلام.. وأن هذه التعاليم قادرة على خلق أطهر المجتمعات عدلا وسموا وإنتاجا وإبداعا!

لقد حقق فى سنتين وعدة شهور ما يشبه المعجزات.. وأنه قد آن الأوان ليلاقى ربه وهو مستريح الفؤاد.

أما أولاده فقد تركهم.. بلا مال.. ولا جاه.. ولا سلطة.. فالله كفيل بهم.

وأما الأمة.. فسوف تعرف أن من حقها المشاركة فى الحكم، وأن تقول كلمة الحق.. وأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق..!

أليس عمر هو القائل فى أحد خطبه، كما روى ابن الجوزى: بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«إن الله عز وجل لم يبعث نبيا بعد نبيه محمد ﷺ، ولم ينزل كتابا بعد كتابه الذى أنزل على محمد ﷺ.

ألا وإن كل ما أنزل على نبيه محمد فهو الحق إلى يوم القيامة، ألا إنى لست بمبتدع، ولكنى متبع. ألا وإنى لست بخيركم، ولكن أثقلكم حملا.

ألا وإن السمع والطاعة واجبان على كل مسلم، ما لم يؤمر بمعصية، فلا طاعة للمخلوق بمعصية الخالق.. ألا هل أسمعت» (قالها ثلاثا).

ويقول الرواة أن آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز، قال فيها بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

«أما بعد..

فإنكم لم تخلقوا عبثا، ولم تتركوا سدى.. وإن لكم معادا ينزل الله فيه للحكم فيكم والفصل بينكم، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله تعالى.. وحرم جنة عرضها السماوات والأرض.

ألم تعلموا أنه لا يأمن غدا إلا من حذر اليوم الأخر وخافه. وباع فانيا بباق. ونافدا بما لا نفاد له.. وقليلا بكثير، وخوفا بأمان. ألا ترون أنكم فى أسلاب الهالكين، وستكون من بعدكم للباقين، كذلك حتى ترد إلى حيز الوارثين.

ثم إنكم فى كل يوم تشيعون غاديا ورائحا إلى الله لا يرجع، قد قضى نحبه، حتى تغيبوه فى صدع من الأرض، فى بطن صدع غير موسد ولا ممهد، قد فارق الأحباب، وواجه التراب والحساب.. فهو مرتهن بعمله، غنى عما ترك، فقير لما قدم. فاتقوا الله قبل القضاء، وراقبوه قبل نزول الموت بكم، أما إنى أقول هذا».

ثم وضع طرف ردائه على وجهه فبكى وأبكا من حوله.

رجل بكل هذا التواضع والخشية من الله تعالى كيف يقبل وجوده المترفون اللاهثون وراء ماديات الحياة وترفها من بنى أمية، الذين ملكوا الدنيا وتخيلوا أنهم ملكوا ما فيها من عباد.

أين هم من هذه الشخصية البالغةِ الإبهار!!

دخلت عليه يوما زوجته فاطمة فرأته يبكى فسألته عما يبكيه. فقال:

ـ «ويحك يا فاطمة: قد وليت من أمر هذه الأمة ما وليت ففكرت فى الفقير الجائع.. والمريض الضائع، والعارى المجهود، واليتيم المكسور، والأرملة الوحيدة، والمظلوم المقهور، والغريب والأسير، والشيخ الكبير، وذى العيال الكثير والمال القليل، وأشباههم فى أقطار الأرض وأطراف البلاد، فعلمت أن ربى عز وجل سيسألنى عنهم يوم القيامة، وأن خصمى دونهم محمد ﷺ فخشيت ألا يثبت لى حجة عند خصومته، فرحمت نفسى فبكيت».

هل يوجد مثل هذا الحاكم فى نبله وطهارته وحسه المرهف، وشعوره بآلام الناس، وأنين المحرومين والمظلومين. . هل يمكن لمثل هذا الحاكم العادل أن يقبله هواة جمع المال والسلطان وأن يكونوا فوق رقاب العباد؟!

وهل لمثل هذا الحاكم العادل أن يعيش طويلاً فى دنيا الناس. . فى هذه الغابة التى تسمى الدنيا ويأكل فيها القوى حق الضعيف. . ويعيش الناس فيها على أساس أنهم طبقات الأقوى يجد فى الضعيف لقمة سائغة، وصاحب السلطان يريد أن يسخر الآخرين ليكونوا عبيدا له.

إن بنى أمية يريدون أن يكونوا ملوكا، والشعب خاضع لهم خضوعا أعمى. .

إن الناس مجرد رعايا. . عليهم تنفيذ ما يأمر بهم السادة.

كان لابد لابن عبد العزيز أن يرحل. .

فمثله النادر الوجود. . من الصعب أن يستمر فى هذه الحياة الدنيا.

لقد كانت آخر وصاياه لأبنائه:

«يا بنى. . إن أباكم خيرٌ بين أمرين. . أن تستغنوا ويدخل النار، أو تفتقروا ويدخل الجنة. . فاختار الجنة. . وآثر أن يترككم لله الذى نزَّل الكتاب، وهو يتولى الصالحين».

وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، قرأ قوله تعالى: ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** (٨٣) ﴾ [القصص: ٨٣].

وصعدت الروح الطاهرة إلى بارئها العظيم.. وآن للجسد المنهك أن يستريح، والروح الوثابة أن تطمئن إلى جوار ربها..

ومات عمر بن عبد العزيز.. خامس الخلفاء الراشدين.. والذى ظل اسمه وسيظل نورا يتلألأ فى جبين التاريخ.. كلما ذكر العدل.. وكلما ذكر التواضع.. وكلما ذكر الورع.. وكلما ذكر الذين يعيشون فى ضمير الناس.. نور يتلألأ.. وعبرة تضئ القلوب والعقول.. ونور هداية لكل من يريد أن يعرف ما فى الإسلام من فضائل وقيم، وما فيه من عقيدة ترتفع بصاحبها إلى ذرا عالية.. وتضئ جنبات النفس وترسم طريق السعادة، وتسمو بالإنسان إلى مدارج النور.

* * *

وتبقى كلمة

عندما تقرأ صفحات التاريخ.. سوف تعرف أن هناك عشرات من الخلفاء أو الحكام أو الملوك قد حكموا، وجلسوا على كرسى السلطة، ولكنهم عاشوا حياتهم بالطول أو بالعرض، ومرت هذه الحياة، وماتوا وماتت سيرتهم، فلم يتركوا بصمة تذّكر الناس بهم، ولا أعمالا جليلة تعيش مع الأيام.. ومن هنا فقد نساهم الناس، ولم يبق منهم إلا لهواة البحث فى التاريخ، أو المتخصصين فيه.. أما هم.. فيطبق عليهم قول الشاعر:

ثم انقضت تلك السنون وأهلها
فكأنها وكأنهم أحلام..!

بل ربما نرى الكثير من الشعراء، أكثر شهرة من الخلفاء الذين عاشوا فى عهودهم، لما تركوه من شعر يسجل واقع الحياة فى عصرهم بأسلوب شاعرى جذاب، أو بما كتبوه أو سجلوه عن حياتهم وما مر بهم من أحداث عاطفية أو غير عاطفية، فردد الناس أشعارهم وحكمهم، وما فى الأشعار من صور فنية جذابة يرددها الناس فى كل عصر.. أما هؤلاء الذين عاشوا فى كنفهم

من حكام أو خلفاء أو ملوك، فلم يعرف الناس عنهم شيئا.. لأنهم عاشوا لأنفسهم لا للناس.. ولأنهم فى حياتهم القصيرة أو الطويلة التى عاشوها كانوا يجمعون المال، أو يركزون فى أيديهم السلطة، ويأخذون الناس بالشبهات، ويعيشون لأبهة الملك، وقد غيرتهم قوة السلطة، وجبروت السلطان، فتجبروا وزرعوا فى نفوس الرعية الخوف والقلق والإذعان الذليل لحكمهم.. وكأنهم سيعيشون أبد الدهر.. وأن الموت لن يعرف طريقه إليهم..

وماتوا..

لم يأخذوا إرثا.. ولا جاها.. ولا سلطانا.. بل ربما شيعتهم شعوبهم باللعنات، لأن هذه الشعوب لم تر منهم إلا أشخاص عاشوا لأنفسهم.. فكونوا الثروات.. ولم يأخذوا من هذه الثروات معهم عندما وسدوا فى التراب لا درهما ولا دينارا.

ولكن قليلين هم الذين تسمع عن اسم من أسمائهم، فإذا بالناس يتذكرون حياتهم وما تركوه من صالح الأعمال وصالح السلوك، وصالح السيرة.. فإذا باسمهم يضوع كما تضوع رائحة العطور، فتملأ النفس سكينة وجمالا وجلالا.

من هؤلاء الناس: عمر بن عبد العزيز.

هذا الذى عاش حياته القصيرة وهو يحلم بأن يحرر الناس من الخوف والقلق والعوز والحرمان.. وعاش حياته وهو يريد أن

يعود بالناس إلى العصر الذهبى عصر الرسول والصحابة، والخلفاء الراشدين. !

كان منتهى أمله أن يخلق المدينة الفاضلة التى رسمها الإسلام. .

مدنية يعيش فيها الناس جميعا سواسية لا فضل لعربى على عربى أو عربى على أعجمى إلا بالتقوى كما كان يقول النبى الخاتم عليه الصلاة والسلام.

لقد كان قبل أن يلى الخلافة شابا وسيما. . محبا للحياة. . تشم رائحة عطوره على البعد، يختال فى مشيته العمرية. . ولكنه عندما تولى الخلافة تحول إلى إنساناً آخر. . وهو ربيب الخلافة والقصور. . إلى إنسان أسمر دقيق الوجه. . نحيف الجسم، غائر العينين من كثرة بكائه وخشيته من ربه، وخوفه أن يظلم أحدا فيشكوه إلى الله تعالى.

ويروى مسلمة بن عبد الملك:

دخلت على عمر فى مرضه، فإذا عليه قميص وسخ، فقلت لفاطمة:

ـ ألا تغسلون قميص أمير المؤمنين؟

فقالت:

ـ والله ما له قميص غيره!!

وبكى عمر فبكت فاطمة فبكى أهل الدار، لا يدرى هؤلاء ما أبكى هؤلاء.

فلما انجلت عنهم العبرة قالت فاطمة:

ـ ما أبكاك يا أمير المؤمنين؟

فقال:

ـ إنى ذكرت متصرف الخلائق بين يدى الله فريق فى الجنة وفريق فى السعير، ثم صرخ وغشى عليه!

ويروى ابن كثير ما قاله رجاء بن حيوه:

لما مات أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز، وقام يزيد بن عبد الملك بعده بالخلافة.. أتاه عمر بن الوليد بن عبد الملك فقال ليزيد:

ـ يا أمير المؤمنين وإن هذا المرائى ـ يقصد عمر بن عبد العزيز ـ قد أخذ من المسلمين كل ما قدر عليه من جوهر نفيس، ودر ثمين فى بيتين فى دار مملوءين، وهما مقفلان على ذلك الدر والجوهر.

فأرسل يزيد إلى أخته فاطمة بنت عبد الملك امرأة عمر:

بلغنى أن عمر خلف جوهراً، ودرا فى بيتين مقفلوين.

فأرسلت إليه:

ـ يا أخى ما ترك عمر من سيد ولا لبد (لا قليل ولا كثير) إلا ما فى هذا المنديل.

وأرسلت إليه به، فوجد فيه قميصا غليظا مرقعا، ورداء قشبا (قديم) وجبة محشوة غليظة واهية البطانة.

فقال يزيد للرسول:

قل لها: ليس عن هذا أسأل، ولا هذا أريد، إنما أسأل عما فى البيتين!

فأرسلت تقول له:

ـ والذى فجعنى يا أمير المؤمنين ما دخلت هذين البيتين منذ ولى الخلافة، لعلمى بكراهيته لذلك، وهذه مفاتيحهما فتعال فحول ما فيها لبيت المال. (فركب يزيد ـ ومعه عمر بن الوليد) حتى دخل الدار، ففتح أحد البيتين فإذا فيه كرسى من أدم ـ جلد وأربع آجرات مبسوطات عند الكرسى وقمقم.

فقال عمر بن الوليد :

ـ استغفر الله!

ثم فتح البيت الثانى فوجد فيه مسجدا مفروشا بالحصا، وسلسلة معلقة بسقف البيت، فيها كهيئة الطوق بقدر ما يدخل الإنسان رأسه فيها إلى أن تبلغ العنق، كان إذا فتر فى العبادة، أو ذكر بعض ذنوبه، وضعها فى رقبته، وربما كان يضعها إذا نعس لئلا ينام.

ووجدوا صندوقا مقفلا، ففتح فوجدوا فيه سفطا ـ شوال ـ ففتحه فإذا فيه دراعه، وتبان كل ذلك من مسوح غليظ.

فبكى يزيد ومن معه وقال:

ـ يرحمك الله يا أخى. إن كنت لنقى السريرة، نقى العلانية.

وخرج عمر بن الوليد ـ وهو مخذول ـ وهو يقول:

استغفر الله.. إنما قلت ما قيل لى!

هذا عمر بن عبد العزيز.. الذى تعيش سيرته فى قلوب الناس الآن.. وفى الغد وفى كل العصور.. لأنه كان الإنسان الذى جسد مبادئ الإسلام.. وقيم الإسلام.. وفضائل الإسلام.. والذى أشربت روحه حب الناس.. فأحبه الناس.. وتمثل فى خلافته بجده العظيم ابن الخطاب الذى كان مثالا للورع والتقوى والزهد.. والقوة أيضا!

وكانت آخر كلمات هذا الخليفة العظيم، الذى كان كالدرة المتلألئة فى سماء الحكم الأموى.

«اللهم رضنى بقضائك.. وبارك لى فى قدرك.. حتى لا أحب لما عجلت تأخيرا.. ولا لما أخرت تعجيلا..

وظل يرددها كما قال صديقه ـ رجاء بن حيوة ـ حتى غادر دنيانا..

لقد عمَّر ابن عبد العزيز دنياه بما قدمه كحاكم عادل عظيم.

وعمَّر أخراه.. بما قدم من سلوكيات كانت تجسيدا لقيم آخر الرسالات السماوية.. وكثيرا ما كان يردد:

- والله لا أصلح الناس بهلاك دينى.

ولعل هذا الإعرابى الذى قابله عمر بن عبد العزيز ذات يوم وهو متخفيا مع مولاه (مزاحم).. قد عبر تعبيرا صادقا عن فترة حكم ابن عبد العزيز، وما كان يشعر به الناس حياله عندما سأله عمر عن الناس؟

فقال الأعرابى:

«تركت البلاد الظالم بها مقهور.. والمظلوم منصور.. والغنى موفور.. والفقير مجبور».

عاش عمر خلافته كعُمْر الزهور.. ولكنه ترك أريجه لكل العصور..

* * *
* *
*

المراجع

* سيرة عمر بن عبد العزيز — ابن الحكم
* أسد الغابة — ابن الأثير
* البداية والنهاية — لابن كثير
* تاريخ الطبرى — ابن جرير الطبرى
* الطبقات الكبرى — ابن سعد
* عمر بن الخطاب — ابن الجوزى
* معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز — خالد محمد خالد
* خامس الخلفاء الراشدين — عبد الرحمن الشرقاوى
* عمر بن عبد العزيز — لابن كثير ـ تقديم وتعليق : أحمد الشرباصى
* عمر بن عبد العزيز — أحمد زكى صفوت
* الأيام الأخيرة للدولة الأموية — عمر أبو النصر
* الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز — أحمد الشرباصى
* العقد الفريد — ابن عبد ربه
* نوادر الخلفاء — لمحمد بن ديات الأتليدى ـ تحقيق : أيمن عبد الجابر البحيرى
* موسوعة سفير للتارخ الإسلامى — د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف
* الدعاء — د. محمد سيد طنطاوى

الفهـــرس

كتب للمؤلف

* خلافة أبو بكر	مركز الكتاب للنشر
* خلافة عمر بن الخطاب	مركز الكتاب للنشر
* خلافة عثمان بن عفان	مركز الكتاب للنشر
* خلافة على بن أبى طالب	مركز الكتاب للنشر
* حجة الإسلام الإمام الغزالى	مركز الكتاب للنشر
* المهاجرون إلى الله	مركز الكتاب للنشر
* الإمام الحسين	مركز الكتاب للنشر
* أبطال الجهاد فى الإسلام	مركز الكتاب للنشر
* أولو العزم من الرسل	مركز الكتاب للنشر
* العوالم الخفية والقرآن الكريم	مركز الكتاب للنشر
* نساء فى حياة الأنبياء	مركز الكتاب للنشر
* موسى بن نصير	دار المعارف
* حديث الروح مع الشيخ الشعراوى	دار المعارف
* مع مشاهير الفكر والأدب	دار المعارف
* السحار والفكر الإسلامى	دار مصر للطباعة
* هؤلاء ورحلة الذكريات	دار مصر للطباعة
* المبشرون بالجنة	دار غريب
* بيوت الله	دار غريب
* المسلمون بين الانتصار والانكسار	دار غريب

رقم الإيداع
٩٩/٧٤٦٣
I.S.B.N.
977 - 294 - 125 - 2

مطابع آمون

٤ الفهروز من ش إسماعيل أباظة
لاظوغلى - القاهرة
تليفون : ٣٥٤٤٥١٧ - ٣٥٤٤٣٥٦

